ابراهيم عاصي

سلك الزمان

قِصَص قصِيرة

نشر وتوزيع:
دار الثقافة
قطر/الدوحة



سلة الرمّان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قِصَص قصِيرة

سَلة الرمّان

تأليف

ابراهيم عاصي

نشر وتوزيع :
دار الثقافة
قطر / الدوحة

الطبعة الأولى ١٣٩١ - ١٩٧٢
الطبعة الثانية ١٣٩٨ - ١٩٧٨
الطبعة الثالثة ١٤٠٦ - ١٩٨٦

دار الثقافة
قطر / الدوحة
ص ب ٣٢٣ تلكس ٤٣٥٤
ت: ٤١٣١٨٠ / ٤١٣٤٧١

مع الطبعة الثانية

عندما ينشر إنسان ما بين يديه صورة قديمة له تعود إلى أيام الطفولة ، تنتابه مشاعر غريبة ومتعارضة ، بعضها حنين ... وبعضها انقباض ! بعضها ارتياح ونشوة .. وبعضها إحباط ! ثم يظل بين إقبال على ملامح الصورة وشغف بها ، وبين إدبار عنها وإنكار لها .

إنه يقبل على ما في الصورة من إيحاءات البراءة في هيئة الوقوف ، وومضات الفطرة في طريقة التعبير عن الذات ... فضلاً عما تبعثه في النفس من نزوع إلى الأيام الخالية من التبعات والهموم وكوابيس الحياة القاسية .

كما أنه - إلا أن يكون من النرجسيين عُبّاد الذات - ينكر غير قليل من ملامح هاتيك الصورة .. الملامح التي تشي بالسذاجة أو تعبر عن عدم الأناقة في الهندام ، وربما في تسريحة الشعر ..

هذا إذا لم يبتسم ابتسامة ذات معنى من زيّ الثوب الذي كان يرتديه ويباهي به ذات يوم !!

تلك المشاعر، أو شبيهة منها، هي التي تنتاب - في تقديري - كل كاتب ينشر بين يديه شيئاً من نتاجه القديم، أو نتاجه الأول يقلبه ويعيد النظر فيه وهو على أهبة إعادة نشره من جديد.

وهكذا أراني الآن، وبين يديّ مجموعتي القصصية هذه ..، سلة الرمان .. أراني بين مقبل على إعادة نشرها لما تحويه في ثناياها من حرارة التجربة الأولى، وصدق الشعور، وواقعية الحدث، ورومانسية التعبير والأداء في كثير من المواقف ... وبين متردد في ذلك لما يقذي عيني في بعض تضاعيفها من سذاجة تقنيّة في طريقة العرض حيناً، ومن غلبة عنصر الفكر على ثوب الفن في بعض الأحيان.

قلت في نفسي: صفحات قديمة من البواكير وما عليّ إلا أن أطويها .. نشرت مرة أولى وكفى !!

ثم قلت: لا .. أنشرها بعد إجراء اللمسات عليها ..،

والتعديلات فيها !

ثم قلت : لا .. لا . إن ذلك نوع من خداع النفس والتدليس على القارئ لا ينبغي لي !

وأخيراً قلت : لماذا التردد ؟ أليست هذه القصص كتلك الصورة ، هي بعضك وجزءاً منك ومن الماضي الذي عليه تنامية ؟ بلى .. إذاً : لا عليك ، أَعِد نشرها كما هي ويكفيك هذه المصارحة القلبية لقرائك .

- فمن قرأك بعين النقد ، فسوف يجدك سبقته إلى تَلَمُّس هناتِك ..

- ومن قرأك بعين الرضا ، لم يحتج أصلاً إلى أيّ من تَلَمُّساتِك ..

- ولا تنس أنهم كثيرون أولئك ، الذين يفضلون أكل اللوز أخضر !!

إبراهيم

سورية - جسر الشغور

مقدمة

أدب القصة ، أو فن القصة ، فن مستحدث في أدبنا العربي . والحداثة التي نعنيها ، هي حداثة فن العرض ، وطريقة الصياغة ، الأمر الذي يميّز القصة عن الحكاية ، وما أكثر الحكايات ، في أدبنا القديم والوسيط والمتأخر !.

تلك – في رأينا – حقيقة . أما الحقيقة الثانية ، فهي أن أدب القصة يكاد يتجاوز – شعبية وأهمية – كل ما عداه من أنواع الفنون الأدبية الأخرى ، بما في ذلك الشعر ؛ فقراء القصة الآن ، هم أكثر نسبة من جميع القراء ، قرّاء بقية الفنون . والحقيقة الثالثة : هي شيء ينبني على ما سبق ، أو هي محصلة له . ذلك أن الجدة والحداثة ، إضافة إلى الرواج والازدهار .. دفعا الكثيرين من حملة الأقلام ،

أن يُيَمِّموا وجوههم شطر القصة والأقصوصة، اعتقاداً منهم بأن اشتغالهم في هذا الفن، يحقق لهم غايتين على الأقل.

أولاهما: الاشتغال بشيء جديد — ولكل جديد لذة —!

وثانيتهما : الاشتهار لدى سواد القراء ، وانتشار الصيت ، واستقطاب المعجبين بأقصى سرعة ممكنة .

من هنا ... ولتلك الأسباب وغيرها ، كثُر عدد الهواة والمحترفين من كتّاب القصة . وبالتالي ... أخذنا نرى فيضاً من الإنتاج في هذا المجال .

على أن الناظر في هذا الإنتاج — على كثرته — ، يفجؤه أول ما يفجؤه : شيوع « ظاهرة الجنس » فيه ، إن لم نقل طغيانها عليه ، واستئثارها به ، جملة وتفصيلا ! . لا نستثني من ذلك ، إلا القليل من الادباء ، وما كتبوا . نخص منهم بالذكر ، على سبيل المثال ، الكاتبين الكبيرين : علي أحمد باكثير وعبد الحميد جودة السحار .

وللسحار كلمة في « الجنس » نجد أنه من المناسب إيرادها ، لما فيها من عمق في النظرة ، وسلامة في الفهم ، وبراعة في التصوير .. لقد قال السحّار * : « قد يأمر

* في كتابه : « القصة من خلال تجاربي الذاتية » .

الطبيب بتحليل البراز ، لمعرفة أسباب العلة . وقد يحلل القصاص الدوافع الجنسية ، لمعرفة أمراض الشخصية .. فإن راح يلهو بالجنس بلا هدف ، فهو كالطفل الذي يعبث في البراز . تتقزز منه النفوس . وينفر منه أصحاب الأذواق السليمة . »

نعود فنقول : إن الناظر في هذا الإنتاج — على كثرته — يهوله ويذهله . أمر أولئك الكثرة الكاثرة ، من الكتاب أو أشباه الكتاب . الوالغين في الجنس ، العابثين في البراز — ذاك الذي عناه السحّار — ، تتقزز منهم النفوس . وينفر منهم أصحاب الأذواق السليمة .

وما نظننا بحاجة لأن نسأل عن سبب هذا العبث ما دام « الجنس » هو أقصر طريق إلى الشهرة . وما دامت « الشهوة » هي الوتر المغري الحسّاس ، الذي لا أيسر من العزف عليه . ولا أقرب منالاً منه . شأنه في ذلك ، شأن « الحائط الواطىء . كل الناس يركبونه ! » .

هذا ... وناهيك عن الربح المادي الفاحش الذي تحققه مثل هذه الأعمال (الأدبية) ، للكاتب والطابع والناشر جميعاً ... وناهيك عن الربح الأفحش ، الذي يحققه تجار هذا النوع من الأدب لعملاء الغزو الفكري — إن لم يكونوا هم رواده الأصليين — ذلك الغزو ، الذي

يستهدف أول ما يستهدف : أخلاقنا ، وقيمنا ، وتقاليدنا ، ومثلنا .. ليجعلها قاعاً صفصفاً ، ورماداً هامداً . مما يسهّل عليه ، بعد ذلك ، أن يفعل فينا ما يشاء : استعماراً للفكر أو للأرض .. وإذلالاً للروح أو للجسد.. واستزلاماً .. واحتقاراً .

* * *

على أن نفراً من الكتاب . كتاب القصة . قد أغراهم التقليد ، مجرد التقليد ، لمعطيات وتيارات الأدب الغربي المعاصر . لقد هالهم دفق التيارات الأدبية . دون أن تكون لديهم القدرة على التمييز بين العاقل منها والمجنون ، فراحوا يغمسون ريشتهم في زبدها . ليطلعوا علينا بشتى أنواع الأدب الرطين الهجين ..

فتارة : (الأدب الوجودي) . وتارة : (الأدب المكشوف) ، وثالثة : (الأدب اللامعقول ! .) وهكذا .. ناسين حاجات مجتمعهم الذي هم منه وفيه ، ومتنكرين لخصائص أمتهم التي ينتمون إليها .

فكان شأنهم ، شأن الذي يحرث في غير أرضه ، ويستنبت في غير حقله ، نباتاً لا يعود عليه بالنفع ، ولا يصلح حيث زرعه للزرع ! .

هذا النوع من الكتاب ، لا يكتب — حين يكتب — منفعلاً بل مفتعلاً . أو أنه يكتب لمجرد الكتابة ، أو لمجرد التنفيس عن حالة (غيبوبية) ، أو للتعبير عن (تفجر) نفسي ألمّ به ، لا يدري سبيلاً إلى الإعراب عنه ، سوى طلاسم يدبجها ، أو ألغاز يسطرها ، تحت شتى العناوين المنسوبة إلى هذا المذهب الأدبي المستورد ، أو ذاك .

وحتى تكون الصورة أكمل ، صورة هذا النوع من الكتاب . وحتى تكون معرفتنا بهم أعمق : لماذا يكتبون ؟ وكيف يكتبون ؟ ومتى يكتبون ؟ وممّ يستلهمون ؟ . حتى يتسنى لنا ذلك كله ، نجد أنه من المناسب رواية هذا المشهد ، ولا حاجة بعده لأي تعليق : « كان يضمني معه مجلس ، انْتَظَمَنَا في أحد مقاهي بيروت . لاحظت أنه على غاية من التهذيب و (الجنتلة) ! . أحسست بأنه واحد من هؤلاء الكتاب . الذين نحن بصدد الحديث عنهم . ثم علمت بأنه يمارس الترجمة ، بالإضافة إلى كتابة القصة . سألته في سياق الحديث ، عما يعرفه من آخر أخبار كاتبة سميتها له .. فروى لي فيما روى :

كنا بالأمس نسهر .. أشارت الساعة إلى الثانية بعد منتصف الليل . قالت لي ، وقد أثقل الشراب

رأسها : أريد أن تذهب معي إلى المقبرة . قلت : لماذا ؟ قالت : أريد أن أكتب عنها قصة ! قلت لها : اذهبي وحدك . قالت : أخاف ! .

قال : فركبنا السيارة ، حتى إذا وصلنا إلى إحدى المقابر في ظاهر المدينة ، دخلنا إليها ، وكانت بالمصادفة مقبرة لليهود . تسطحت صاحبتنا هناك زهاء ربع ساعة ، تحف بها القبور الرهيبة . ثم قامت ، فمددت إليها يدي بأعشاب خضر . قلت لها : كلي . قالت : ماذا ؟ قلت لها : كلي من هذا العشب . فقالت : أخشى على نفسي من ضرره ، فكل أنت معي . قال : فأكلت وأطعمتها .

ولما أكلتْ ، قلت لها : لقد أطعمتك من لحوم الأموات ! فانتفضت كهرة شرسة قائلة لي : وكيف ذلك ؟! قلت لها : هذا عشب المقبرة ، فيها نبت ، ومن لحوم الأموات تغذى ، إذن : هو لحومهم . لقد نمت أنت بينهم، وأطعمتك أنا من لحومهم ، وبهذا تكون أحسن الفرص ، قد تهيأت لك للكتابة عن المقابر والأموات ... » وقبل أن تتعاظم علامة الاستغراب ، التي ألمحها – وقد ارتسمت – على وجهك ، أخي القارىء ، لا بأس أن آخذ بيدك إلى مكمن السر ، في هذا التصرف الدراماتيكي الأريب ! .

هل تسمع بكاتب القصة الأمريكي إدغار آلن پو ؟ أظنك تسمع به ، إن لم تكن قد أعجبت به وقرأت له .

يؤثر عن هذا الكاتب . أنه كلما أراد كتابة قصة ممعنة في الإرعاب . موغلة في التهويل والإرهاب . فإنه يتعشى حتى الاكتظاظ . متناولاً أثقل أنواع الأطعمة والأشربة المتنافرة الغليظة . ثم ينام مباشرة ..

كان يفعل ذلك لتتوارد عليه الأحلام المزعجة المخيفة .. حتى إذا ما نهض ، قام لتوه وسجلها ، ثم صاغ منها بعد ذلك . قصص الرعب الاسطورية ، المليئة بالعفاريت . والأشباح . والشياطين . والمردة ، والقطط السود ! .

فهلاّ عرفت . بعد هذا . من أين جاء وقع الحافر على الحافر ؟ في ظني أنك عرفت . وعرفت أيضاً مبلغ القزامة في الاقتداء والاقتفاء ، لدى صاحبتنا ضجيعة المقبرة وأشباهها من الكتاب ؟!

* * *

إلا أن هناك . نمطاً ثالثاً من أدب القصة . لا يدور حول الجنس .. لا يستثير الغرائز .. لا يجعل من النساء — كل النساء — صائدات رجال ، وبائعات هوى .

وعارضات لحوم ، وأسيرات شهوة ..

ثم هو لا ينطلق من المقابر ، ولا ينبعث من الحانات .. لا يصدر عن خيالات الحمرة ، أو منتديات اللذائذ والغرام .. ولا يتسلق سلم الشهرة على حطام اللغة السليمة ، والشرف والأخلاق .

هذا النمط الثالث ، يتناول المرأة ــ عندما يتناولها ــ : أماً أو زوجة ، أو مجاهدة ، أو مواطنة ، أو طالبة ، أو ما إلى ذلك . هذا النمط الثالث ، ينطلق من المجتمع نفسه ، على علاته ، يستخدم مصطلحاته ، يعيش مشكلاته ، يتقصى نماذجه البشرية والإنسانية .. في حالات صحوها وغفلتها .. وفي حالات صحتها ومرضها .. وفي لحظات ضعفها وقوتها .. لا يجعل من جميع الناس ملائكة وأبطالاً .. ولكن لا يتخذ منهم جميعاً شياطين ومأفونين ! .

إنه أدب أصيل ، ينبعث من إحساس مرهف ، بنقاط الضعف والقوة ، التي عليها الأمة .. ويصدر عن حالة من الوعي المتفتح المسؤول

أما نصيب هذا الأدب من الخيال الفني فليس بالقليل . إلا أنه خيال سليم ، مبدع ، بنّاء ، خصيب ، لا أثر فيه للمغيّبات ، ولا حاجة به للمعاناة الإفتعالية الإصطناعية ،

في مقابر ، أو كهوف ، أو مخادع ، أو في أجواف ممعودة مكظوظة ، أو فيما سوى ذلك وأشباهه ! .

وبكل أسف ومرارة نقول :

إن هذا النوع من الأدب ، ما يزال — من الوجهة الكميّة — قليلاً حتى الآن ! .

وما يزال يعيش في الظل إلى الآن ! .

وإلى هذا النوع من الأدب — بالذات — ، أرجو أن تنتمي هذه المجموعة القصصية التي أسميتها (سلة الرمان) .

* * *

بقي أن أشير أخيراً ، إلى أن قصص هذه المجموعة ، كانت قد نشرت متفرقة — مع قصص أخرى — على صفحات مجلة « حضارة الإسلام » ، خلال الستينات الماضية . واليوم إذ يعاد نشرها مجتمعة .. فإنما يراد لها من هذا الاجتماع ، أن تكوّن لوحة واحدة ، قد تأتي أعمق تعبيراً .. وأوفى دلالة .. وأبعد أثراً .

ولله الحمد أولاً وآخراً .

ابراهيم عاصي

ليرة دهب



ليرة ذهب

اندلعت نيران الحرب العظمى وأخذت تلتهم البشر والبلاد ، ودخلت فيها الدولة العثمانية العلية لتحارب بسواعد رعاياها من شتى الملل والنحل ولتمزج بهم في معتركها اللاهب المستعر .

وسار (شكيب) ورفيقه (صالح) في موكب قرعته مع (السوقية) في (طابور) طويل قاصدين (القراركاه) حيث مركز التدريب في بعلبك ، ولم يكن شكيب وصالح رفيقي طريق وحسب ، بل كانا رفيقين منذ الصغر ، وابني حي واحد وبلدة واحدة ، يرتعان ويلعبان معاً منذ طفولتهما الأولى . ولقد تزوج صالح منذ سنتين من إحدى قريباته التي أنجبت له طفلاً سماه (عابد) وبنتاً

سماها (مريم) في أعقاب حب عفيف عنيف . وكان يشار إليه بالبنان في بلده لأنه أحد ثلاثة يتقنون القراءة والكتابة في طول البلدة وعرضها . بينما كان شكيب لا يزال عزباً خاطباً وكان أمياً شأنه في ذلك شأن سائر أبناء زمانه .

على أن (شكيب) كان مربوع القامة أسمر اللون أسود الشعر والعينين أجش الصوت جلداً صبوراً . على حين كان صالح (أبو عابد) شاباً أقرب إلى الطول ، حنطي اللون ، رقيق البشرة ، واضح القسمات ، في صوته حنو وفي وجهه معالم روح وادعة مطمئنة .

وصلت (السوقية) إلى بعلبك حيث معسكرات التدريب ، ووزع القوم إلى سرايا ومجموعات تدريبية . وكان من حسن حظهما أن بقيا معاً في (طاقم)واحد، وظلا كذلك إلى أن انتهت الشهور الثلاثة المحددة فترة للتدريب . ولم يكن لهما من عزاء طوال تلك الفترة على ما فيها من مشقة ونصب وإرهاق إلا أن يجلسا معاً في وقت فراغهما المحدد يتبادلان ذكريات الطفولة وأول عهد الشباب ، ويتحدثان ملياً عن آمالهما في العودة إلى ملاعب الصبا ومراتع الأمن والجمال .. إلى الأهل .. إلى الوطن .. إلى الأب والأم والأبناء .

وكانا كثيراً ما يتمنيان على الله أن لا تطول سنوات الحرب التي لم يؤمنا بهدفها منذ اللحظة الأولى .. وأن لا تنأى بهما الديار أبعد من ذلك .

وما أكثر ما قطع حديثهما دموع سخية سخينة كانت تنسفح على وجنتي شكيب وقد تخيل آخر صورة لأبيه المتداعي وهو يدب خلفه في موكب الفراق ، ولأمه العجوز وهي تضرع إلى الله وسط الجموع الغفيرة من الأمهات المودعات بذراعين مرتجفتين أن يمد الله بعمره ويعيده سالماً .. وآخر صورة لخطيبته (زكية) وهي تلقي عليه خلسة آخر نظرات الوداع من نافذة علّيتها المطلة على ساحة النفير .

وما أكثر ما قطع حديثهما عبرات خانقة كانت تأخذ بعيني (صالح) فتجريان بلا حساب وقد تداعى إلى باله آخر صورة لأبويه اللذين لم يقويا على وداعه من شيخوخة ومرض وحزن .. أو آخر صورة لزوجته الحبيبة (أم عابد) والدموع في عينيها جامدة من هول الموقف وشدة الزحام .. أو آخر صورة لطفله (عابد) تضمه أمه إلى صدر مترع بالحنان رحيب ، هو يحاول بذراعيه الغضتين أن يفلت منها إلى أبيه الذي انتظم في (الطابور) على أهبة المسير وهي تحاول منعه فقد صاح

النفير .. أو آخر صورة (لمريم) بنت الشهور الخمسة وقد أطبقت جفنين ناعمين على مقلتين خضراوين في مهد صغير .

وفرز العساكر المدربون إلى القطعات المحاربة ، وسيقوا إلى ميادين القتال في (المضايق) وبلاد (الروملي) وتخوم اليونان وفي غزة والسويس ، على أن طالع شكيب وصالح كان أقوى من الصخر وأعتى من الحرب نفسها فلم يكونا في عداد المفرزين إلى المعارك ، ولم يفترقا عن بعضهما وظلا في (طاقم) واحد في مفرزة لحفر السواحل على شاطىء بيروت .

ثم أخذت سنوات الحرب تمر عجافاً شدادا على جميع الخلق في الدنيا ولا سيما بيروت التي كادت تأكل بعضها من فقر وتقتير وجوع . ولعل الناس فيها كادوا يأكلون التراب أو أكلوه . وقد لاحظ أبو عابد عندما كان يتردد على المدينة بين الحين والآخر سوء الحالة فيها وشدة الجوع فخطر على باله أن يوفر شيئاً من (تعيينه) اليومي ليتصدق به أو ليبيعه. لا سيما وقد رأى أن أية فضلة من رغيف لها ألف متلقف ومتلقفة ، وأن حفنة من حبات الفاصولياء أو حسكة من (سردينة) لها ألف راغب وراغبة .

وما زال أبو عابد يوفر من طعامه اليومي المقنن عليه وعلى أمثاله من (الأنفار) ويبيع منه أو يتصدق في المدينة حتى اجتمع له من ذلك مبلغ ينوف على خمسمئة قرش تعادل ليرة ذهبية .

وكان خلال سنواته الثلاث التي قضاها على هذه الحال لا يفتأ يذكر زوجه وأهله وأولاده . كان دائم التفكير فيهم ، دائم الهاجس بأحوالهم . من مات منهم يا ترى ؟ من مرض ؟ كيف حال أمي ووالدي ؟ كيف حال (حفيظة) زوجتي هل لا تزال تذكرني وتحن إلي كما أحن إليها وأذكرها ؟

كيف حال عابد ؟ بروحي أنت يا عابد .. هل من عودة فأراك ؟ هل من عودة فأحظى من ثغرك بقبلة ، أو من لسانك بكلمة (بابا) ؟ وهل إذا عدت ستعرفني فتقبل علي وترتمي في حجري ؟ أم انك ستنكرني وتخشاني ؟ .

وكيف حال مريم ؟ إنها الآن بنت ثلاث سنين ونصف وقد خلفتها بنت شهور خمسة .. إنها غدت صبية تدرج وتتكلم .. ولكن من يرد عليها يا ترى عندما تنادي (بابا) وماذا يقولون لها عندما تسأل عن (بابا) ؟ حياتي فداؤك يا مريم ، وفداء عينيك الخضراوين ،

وفداء الإغفاءة البريئة التي كنت تستسلمين إليها عندما ودعتك بقبلتين .. آه ما أروع الطفولة وما أحلى طفولتك أنت يامريم .. ليتني كنت مثلك يا حبيبتي.. طفلاً أدرج. بل ليت البشرية كلها تعيش بقلوب الأطفال .. فلا غش ولا خداع ، ولا مكر ولا نفاق ، ولا كيد ولا انتقام ، ولا حرب ولا دمار ، ولا غربة ولا فراق ... بل حب وسلام ، وسعادة وبراءة ووئام .

وذات ليلة بينما كان على تلك الحالة من الخواطر والتأملات وليس أمامه إلا البحر يبدو له في ظلمة الليل رهيباً مهيبا ، والآكام من حوله والذرا تتطاول بأعناقها نحو السماء كأنها رؤوس الأشباح والشياطين .. في تلك الليلة خطر له أن يتصل بشكيب – وكان في المخفر المجاور على السفح القريب – ليفضي إليه بأمر ! واتصل من فوره بشكيب وانفرد به وحدثه حديثاً طويلاً . وما هي إلا ساعة من زمن حتى كان شكيب وصالح يغذان سيرهما وسط الجبال والآكام سريعاً سريعاً متجهين نحو الشمال فارين بروحهما وسلاحهما إلى بلدتهما (الجسر). وكان الليل قد انتصف فلم يصبح الصباح عليهما وتبزغ الشمس حتى كانا قد اجتازا مسافة غير قصيرة جعلتهما يأمنان بعض الشيء شر المطاردة

من قبل رئيسهما الذي أحس بفرارهما ولا شك ولكن بعد فوات الأوان .

وأخذت الليالي تتوالى عليهما وهما ينتقلان من قرية إلى قرية يبيتان مرة ويسريان أخرى. يطويان السهول ويتسلقان السفوح إلى أن اجتازا أكثر من ثلثي الطريق ولم يبق عليهما إلا يوم وبعض يوم حتى يصلا إلى مرابع الأهل وديار الحنين . فازداد منهما الأمل وقوي الرجاء وظنا أن لا خوف بعد ذلك من مطاردة أو (تعقيب) .. وفجأة طلع عليهما جماعة من اللصوص قطاع الطريق . وكانت ليلتهما حالكة الظلام ، وكانا على حافة نهر صغير يهمان باجتيازه .

وجرى تبادل إطلاق الرصاص بين الجانبين ودام فترة من الزمن سمع في أعقابها صوت انبعث من أعماق الليل يقول : «آخ أنا قتلت يا شكيب» وهرع شكيب نحو الصوت وقد غاب صوابه .. ولاذ اللصوص بالفرار خشية أن يكشفهم الفجر وقد لاحت خيوطه .

وفي سكون الفجر ومع نسمات الصبح الباردة وفوق أعشاب غضة غافية على مجرى النهر المتدفق أخذ أبو عابد يودع حياته ويطلق آخر أنفاسه وانكب شكيب عليه في خشوع يقبل وجهه ورأسه ويديه ، ودموعه تنسكب

غزيرة دامية . وقبل أن تنزف آخر القطرات من دم صالح سمع يحرك لسانه بتمتمات تقول :

أخي شكيب .. وداعاً لك .. حيا .. تي .. انتهت .. لك حبي .. وشكري .. سامحني .. بجيبي .. ليرة .. دهب .. أمانة .. لأم .. عابد والأولاد .. أشهد .. أن لا .. إله إلا الله . وأشهد .. أن محمدا .. رسول .. الله ..

وانطفأت روح صالح وارتفعت إلى بارئها . ولم يكن بمقدور شكيب أن يتأخر دون أن يتصرف بسرعة . فقد يتهم بقتله !. وقد يرتد عليه اللصوص !. وقد يقبض عليه الجند متلبساً بجريمة الفرار !. فما كان منه إلا أن سارع إلى أرض هشة قرب النهر وأخذ يحفر فيها بيديه ويحفر بحربة بندقيته إلى أن نبش من التراب ما يكفي لدفن صاحبه . ثم حمله وسجّاه في الحفرة كما هو بدمه وسلاحه وثيابه . وقبل أن يهيل عليه التراب لم ينس أن يمد يده إلى جيبه ليستخرج منه الليرة ومعها ورقة مطوية لعلها رسالة كان يزمع إرسالها لأهله قبل تفكيره بالهرب أو لعلها تميمة (حرز) على الأرجح ، ثم أهال عليه التراب ، وتابع يشق طريقه نحو الشمال . وما هو إلا يوم وليلة حتى كان في بلدته (الجسر) بين أهله وأحبابه .

ولم يكد أحد من القوم ليصدق بمجيئه لولا الرؤية

المتفحصة والسلام المباشر والعناق . فكانت فرحة وكانت أعياد عند أهله وأصحابه ومحبيه ولا سيما أم صالح – وكان أبو صالح قد مات – وكنتها أم عابد اللتين استروحتا فيه ريح أبي عابد وكأنه عاد بعودته . ومع ذلك فلم تستطيعا تأنياً في السؤال من أول لحظة عن صالح ولكن (شكيب) لم يسرع بإفشاء السر خشية الصدمة فاكتفى بأن أجابهما : انه بخير والحمد لله، وغداً (يخف) الناس ونتحدث على مهل،وهذه (علامة) منه ، ومد يده إلى جيبه وأخرج منه الورقة إياها التي كانت مع الليرة وقال لام عابد خذي هذا (الحرز) .

تناولت أم عابد الورقة وكانت مطوية باعتناء على شكل مربع صغير فأدركت للحال أنها من خط زوجها بعث بها لتكون (حرزاً) في رقبة صغيره عابد تحميه شر العين والحاسدين . فلم تتمالك أن ضمتها إلى صدرها وشقت طريقها إلى البيت وهنالك انهالت على التميمة شماً وبكاء حتى ضجت بها الأرض وهي في كل ذلك لا تحس ولا تعي . ثم نهضت لتغلفها بقطعة من جلد رقيق خاطته عليها ثم علقتها من عروة في صدر ابنها عابد بين القبل والدموع .

ولما جاء اليوم التالي وهمتا بالذهاب إلى شكيب

للاستزادة من أخبار صالح بلغهما أنه قد اعتصم بالجبل فراراً من العساكر الذين (كبسوا) بيته إثر دسيسة عليه من (مخبر) أعلم فيها المسؤولين عن وجود (فراري) .

ومرت الأيام،في أثرها أيام وشهور،وهما تنتظران عودته من الجبل،حيث عصا،فلم يعد،وتأملان بأوبة صالح من العسكرية فلم يأب .. إلى أن قيض الله الفرج فانتهت الحرب وبدأ الجند يُسرَّحون فاستبشر الناس خيرا وبدأت الآمال تدب في النفوس من جديد وأخذ الكرب والويل ينزاح عن صدور الخلق بعد أن جثم عليها سنين ثقيلة وبيلة ، فنزل شكيب من الجبل بعد أن اعتصم فيه أكثر من سنة ؛ وكان لا بد له من أن يواجه أهل صاحبه بالحقيقة المرة بعد كل هذا الانتظار،فقص عليهما القصة كاملة من البداءة حتى حادث مقتله،وما إن وصل إلى « المقتل » حتى أغمي على أم صالح وانطرحت على الأرض ، أما زوجه فلقد انتابتها رعدة انعقد معها لسانها وجمد الدمع في مآقيها ثم ساءت حالها وأوشكت على الهلاك في حين انتهى الأمر بأم صالح إلى الموت بعد بضعة أيام .

ولم يبق من أسرة صالح إلا أرملته ويتيماه (عابد

ومريم) وليس لهم من معيل إلا الله ومورد ضئيل من نسج الحصر وغزل الصوف العمل الذي بدأت تزاوله الأرملة المفجوعة التي رفضت فيما بعد جميع من تقدم لخطوبتها وفاء منها لذكرى من أحبها ودفع حياته ثمناً في محاولته للوصول إليها ، وكان رفضها كذلك لحرص منها على طفليها أن ينالهما أي ظلم في بيت الرجل الغريب .

أما الليرة الذهبية التي تصلح رأس مال كبير بالنسبة لعائلة أبي عابد في ذلك الحين فإن (شكيب) لم يأت على ذكرها ولم يشر إليها !. فهو قد أمضى مطارداً في الجبال أكثر من عام صرف خلاله جميع ما يملك وما لا يملك وفي عداده الليرة الذهبية ، إلا أنه عاهد نفسه — بسره — أن يعتبرها ديناً عليه مبرماً يسدده إلى أصحابه عند أول موسم لأراضيه .

وجاء أول موسم وجنى منه ما جنى ، وكان قد مضى على انتظار خطيبته له مذ بارحها إلى الجندية زهاء خمس سنين ، فكان لا بد من أن يتزوج في ذلك العام ، وللزواج تكاليفه ، مما أوقعه في حيرة من أمره ، أيدفع الليرة لأصحابها أم يستخدمها في نفقات العرس والعروس ؟ ولم يطل به التردد فقد قرر أن يصرفها في العرس فالطفلان

اعتادا شظف العيش ، وأمهما اعتادت هي الأخرى العمل والسهر وهو محتاج لليرة على أي حال ولن (يأكلها) على أصحابها .. وعاهد نفسه — بسره — أن يعتبرها ديناً عليه مبرماً يسدده إلى أصحابه عند أول موسم لأراضيه .

ثم أخذت المواسم تكر وتفر وتتوالى وهو في كل مرة يجدّ له مشروع وتجد له فكرة ولا يعدم لنفسه المبررات في استعمال الليرة لصالحه على وجه من الوجوه .. إلى أن اكتهل وصار جداً .. وإلى أن شب عابد وتزوج وأنجب، وكذلك اخته مريم التي غدت أم أولاد .

وظلت حكاية الليرة الذهبية سراً دفيناً في صدره لا يعلم به إنسان برغم أنه أصبح وأولاده الكثر من ذوي اليسار في البلدة ومن خزنة المال !؟

وذات ليلة جاءته سكرة الموت ، فارتمى على الأرض والتف من حوله أولاده وأحفاده وذووه يبكون وينتحبون . وكان هو يغيب عن الوجود تارة ويحضر أخرى ، يجمجم بكلام غير مفهوم . قسمات وجهه في تقلص وانقباض مستمرين . كان يبدو عليه أنه يعاني من صراع في داخله وضيق في صدره أكثر مما يعاني من آلام النزع . وكان كلما صحا قليلاً تحسس جيباً

في صدر (قنبازه) يمد يده إليه ثم يغللها عنه ، ولما صحا صحوة الموت طلب من أهله أن يجلسوه قليلاً فأجلسوه . وأشار إلى ابنه الأكبر (سليمان) فاقترب منه . وهش على الآخرين فابتعدوا عنه ، وعندها مال إلى أذن سليمان وقال له : يا بني ان في جيبي هذا ليرة ذهبية خذها منه بعد موتي وأعطِها الى ابن أخي عابد وقل له هذه أمانة لك من أبي .

ومات أبو سليمان واقتسم أبناؤه ثروته الطائلة وأراضيه في أقل من اسبوع . وفي غضون ذلك أوصل سليمان الليرة الذهبية إلى ابن عمه عابد وأبلغه مقالة أبيه . وكم كانت دهشة عابد عظيمة ، وذهوله غريباً ؟! كان لا يزال يعاني أشد الأحزان على موت أحب إنسان إليه يذكره كلما رآه بأبيه .. فما معنى هذا اللغز الجديد ؟ على أنه أخذ الليرة من سليمان وحبس الكلام في فمه إلى أن جاء المساء حيث اجتمع إلى (حفيظة) أمه العجوز ، وإلى زوجه وأخته مريم ، وإلى أولاده فقص عليهم نبأ الليرة وتداول الجميع بالأمر . علهم يجدون تفسيراً له فلم يجدوا !

— إنها ليست ذمة بل يستحيل أن تكون كذلك فالمرحوم كان لا يقرض ولا يستقرض ! .

ـ وإنها ليست صدقة فنحن الآن بنعمة وافرة وخير عميم والحمد لله ! .

ـ وإنها ليست وصية فأولاده هم وصاته ! .

إذن ليست هذه الليرة سوى مبلغ قليل . رأى أنه من اليسير أن يوصله إلينا أبناؤه بعد وفاته ؛ فلعلنا ننفقه صدقة عن روحه للمحتاجين . فالمرحوم يثق بنا أكثر من أبنائه الذين لمس فيهم الاقتتال على ثروته ، وقلة حبهم للصدقة والمعروف ،مذ كان على قيد الحياة .. واستقر رأي الجميع أخيراً على هذا . وأجمعوا على أن يضيفوا إلى الليرة ليرة أخرى ، ويتصدقوا بهما منذ الصباح فخير البر ما كان عاجلا .. ولكن التفاتة حانت من عابد نحو طفله الصغير ، الذي كان قبل قليل يعبث بجيوب والده وهو في حجره ، فوجد بين يديه (الحرز) وقد نزع عنه غلافه وأوشك أن ينقضه . وبحركة سريعة أنقذه من يديه ثم جعل يعيد طيه من جديد . على أن حب الاستطلاع دفعه لأن يطلب من ابنه الأكبر صالح (سمي جده) أن يقرأ عليهم ما في هذا (الحرز) من أدعية وأذكار . وما هي إلا لحظات حتى تغير وجه صالح وبدت عليه علائم العجب والدهشة وانطلق يقول : لا .. لا .. إنه ليس حرزاً يا أبي.إنه ليس حرزاً.هو رسالة ! رسالة بخط جدي وبتوقيعه ! .

أصغى القوم صغاراً وكباراً وكأن على رؤوسهم الطير ، وبدا لهم كأن الجد قد نهض من القبر لتوه ليحدثهم ويفضي إليهم بالكلام المسحور . فوجفت منهم القلوب ، وخشعت الأبصار ، وجفت الحناجر ، وتسارعت الأنفاس . وأصاخت الأسماع وتراءى لهم الجد مطلاً من وراء الخمسة والأربعين عاماً ! . ثم شرع صالح الحفيد يتلو بصوت هادىء عريض ، وبنبرات مرتعدة متهيبة :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى بنت عمي العزيزة الطاهرة حفيظة

سلام سليم . ووجد عظيم إلى روحك الزكية . وإلى روح الحبيبين عابد ومريم . وإلى أمي الصابرة والوالد الحنون ...

وأنا يا حفيظة لا يمكن أخون العهد . تصوري أنه صار لي منذ ثلاث سنين أوفر من قوتي من تعييني لأبيع منه وأجمع لك وللأولاد كم قرش وصار معي الآن من

فضل الله ليرة دهب ، وإن شاء الله بتكون من نصيبنا ونصيب الأولاد . وفي الختام قبلي عني يد والدي وأمي ، وعيون عابد وشعرات مريم والسلام .

الداعي لكِ
ابن عمك صالح


من أدب الدعوة الإسلامية
www.Facebook.com/RareIslamicPoetry

سلة الرمان



سلة الرمان

أشرف الخريف على الانقضاء . وأطل الشتاء برأسه على الدنيا قاتم الوجه مقطب الجبين ، مكشر الناب مرعب الصوت ، مهدداً متوعداً جلود الفقراء . وجيوب البؤساء ، وصحة المحرومين .

وكان هذا يعني بالنسبة (لأبي قدور) أن موسم قصد (الأجاويد) قد حان . فانطلق كعادته في كل عام — وقد كاد ينتهي موسم قطاف القطن — يحمل على كتفه الناحل المتداعي رفيقة طريقه ، ومؤنسة دربه ، وحاضنة مجهوده وآماله . والحفيظة على سر زاده ... يحمل سلته تلك التي نسجتها له (أم قدور) منذ عدة سنوات من أصلب أنواع العود والقصب ، والتي ما زالت توصيه بها خيراً في

كل سفرة إلى المدينة أو منها . ولكنه قد ملأها في هذه المرة رماناً وانطلق يمشي بها – وقد نخرت عظامه السنون ، وعشعش في جيوبه الممزقة وفي ثنايا أسماله المهترئة الفقر والحرمان – يمشي بها متهدل القامة ، حاني الظهر من ضعف ووهن ، ولكن مع ذلك فإن وجهه الشاحب الغامض ، المغضن بفعل الهموم وشدة السنين ما كان ليخلو من بارقة أمل تشع من عينين لا تبدوان للرائي إلا بصعوبة من خلال شعر خشن أشمط ، كث قصير ، تناثر فوق جبهته – إلا رقعة منها – وحول باصرتيه وفوق وجنتيه . وعلى بقية السفوح والتلاع والأخاديد من وجهه المليء بمعاني الفطرة والبساطة والطيب .

وكانت بارقة الأمل تلك تحدوه طوال طريقه الوعرة من قريته الصغيرة إلى المدينة المجاورة حيث ذلك الرجل الغني النازح من ريفه منذ عدة سنين والذي اعتاد أن يجود عليه في مثل هذا الوقت من كل عام ببضع عشرة ليرة يشتري بها قمحاً وذرة مؤونة سنوية للعيال .

وصل المدينة وقرع باب دار (أبي حاتم) فخرجت خادمته لتفتح لهذا الطارق السنوي ولتتناول منه هديته التقليدية (سلة الرمان) . ولكنها في هذه المرة ألقت إليه بخبر خطف منه كل بارقة أمل ، ووقع على مسمعه وقوع

الخيبة، وذلك عندما قالت له: « سيدي أبو حاتم مسافر » . ومتى يرجع ؟ لا أدري ...

كتم أبو قدور أنفاسه التي أخذت تتصعد حارقة .. وكتم أبو قدور لواعج المرارة والألم الممض إثر هذه الخيبة غير المنتظرة .. وقال للخادم : « على كل فأنا غداً سأعود ».

وكان المساء قد حل ثقيلا مكرباً ، وقد مهد لحلوله بصفير من ريح قارصة هي من نُذُر الشتاء الذي أخذ يدق الأبواب . فهام أبو قدور على وجهه .. أين يبيت ليلته ؟ أين يأكل وكيف السبيل إلى الطعام ؟ .. لقد أضناه التعب ، وهده المسير ، إنه لا يملك شيئاً من نقود ، ولفافاته قد نفدت .. إذن كيف يقتل ليله ؟ ويصرف همه ؟ وينفث غمه ؟ ها هو ذا يرتعد برداً ، وها هو ذا يتكور على نفسه في محاولة منه يائسة لمدافعة عصف الريح ولسعها ، ولكن هيهات أن تدفع تلك المحاولات كلها شيئاً ... وصاح المؤذن «الله أكبر» داعياً للصلاة فولج أقرب مسجد. وبعد أدائه لصلاة العشاء تخلف عن الخروج ولاذ بأحد أركان المصلى وأسلم نفسه لأحلام مزعجة وسهاد طويل ...

إلا أن أحلامه على ازعاجها ما كانت لتضن عليه بين الحين والآخر بطيف (أبي حاتم) يدنو منه مسلماً ، ويحدثه مرحباً ، ويمد يده إليه باراً ومتكرماً ، ولا يفوته

هو أن يهش لمقدم أبي حاتم وأن يقوم له إجلالا ويمد يده متلقفاً عطاءه ، ولسانه شاكراً حباءه .. ثم لا يلبث أن يستيقظ على صوت نفسه، ويفيق على حركات يديه ورجليه، ويستشعر أنه في حلم فيعاود النوم من جديد .. ولكن ليأكل ما لذ وطاب على خوان أبي حاتم في بيته ، وليدخن أعذب اللفائف إلى قلبه ثم لا يلبث أن يصحو على مضغ لسانه أو اصطكاك أسنانه ويحس أنه في حلم ويعاود النوم من جديد .

لقد تطاول عليه الليل ، ولقد برحته الآلام والهموم ، ولكن ها قد سُمع صوت المؤذن ينادي « الله أكبر » . واجتمع القوم لصلاة الصبح. وعندئذ تحرك من مكانه وانتصب على أقدامه يسعى للصلاة وفي هذه اللحظة بالذات أتيح للمصلين أن يتبينوا أن المكان كان مشغولا بآدمي ملفوف على نفسه وليس بكومة من بساط عتيق !

أشرقت الشمس ، وسعى الناس إلى أعمالهم ودبت الحياة في الأسواق والأحياء وحان الوقت لأن يرجع أبو قدور إلى بيت صاحبه يتفقد عودته ومعه حجة استرجاع السلة الفارغة ، وها هو ذا يمشي بخطوات مترددة حائرة ، وها هو ذا يقرع الباب لتخرج الخادم نفسها قائلة له: (لم يرجع سيدي بعد) ويرد عليها طالباً منها السلة الفارغة فتدفع بها إليه ، فيأخذها ويرتد عن الباب لا يلوي على

شيء . وخانته أقدامه في المسير ، وتخلف عنه عزمه في العودة إلى القرية بعد أن طالت به المخمصة وبعد أن خارت قواه .

يا رب ماذا أصنع ؟ وماذا أفعل لقد خذلني حظي ، وخذلتني عزيمتي ، وخذلتني أوصالي كلها حتى رجلاي .. لم أعد أقوى على المسير ، ولم أعد أقوى على تحمل الجوع أو تحمل لؤم البرد الشديد .. وذهب يخاطب نفسه بمثل تلك التساؤلات ، وذهبت به الخواطر كل مذهب وأخيراً اهتدى .. اهتدى إلى منفذ النجاة .

لماذا لا أبيع هذه السلة الفارغة وأدفع ثمنها أجرة طريق لأول سيارة تحملني إلى القرية فأوفر على نفسي مشقة المشي ، وأقع على أي طعام أجده في بيتي ؟ ! .

إن السلة غالية عليّ — ولا شك — وهي عزيزة عندي كعزّتها عند أم قدور ، وإن لي معها ذكريات دروب لا أنساها .. ولكن ما حيلتي ؟ ! .

إن ثمنها في المدينة هو ضعف ثمنها في القرية على أي حال ، إن ثمنها يعادل ليرتين على الأقل .. وكان آنئذ قد وصل إلى السوق .

أخذ يتفرس في وجوه القوم من باعة وخضرية ثم

توجه إلى من توسم أنه أنبل القوم أصلا ، وأسخاهم يداً ، وابتدره قائلا : أتشتري هذه السلة يا أخ ؟

– نعم أشتريها .

– كم تدفع ثمنها ؟

– كم تريد أنت ؟

– (على وجدانك) .

وكان لا بد وقد غدت القضية قضية (وجدان) من أن يفكر المشتري ملياً بالسعر قبل أن يحدده . فأمسك بالسلة وأخذ يقلبها على وجوهها وينظر إليها من أسفل وينظر إليها من أعلى ، ويجس مقاومتها ، ويسأل عن تاريخ صنعها .. وأخيراً وبعد طول تقدير وتفكير مدّ يده إلى درجه دون تردد وأعطاه تسع فرنكات عداً ونقداً وأتبعها بقوله له : « مسامَح فأنت رجل فقير » .

فانتفض أبو قدور كمن لسعته عقرب ثم اعتراه الذهول فجأة فتسمّر في مكانه ، فعقد لسانه وجحظت عيناه – على رخاوتهما – وهما تحملقان في وجه صاحب « الوجدان الكبير » . إلا أنه لم يطل به الوقوف فبادر إلى رد الفرنكات التسع لصاحب « الوجدان » ثم انتزع السلة من بين يديه ، وأدار ظهره محنقاً في يأس ، غاضباً في قنوط ، وهو يردد

بصوت خافت : « مسامح فأنت رجل فقير .. » « مسامح فأنت رجل فقير » ! . قاتله الله أيظنني سارقاً لها أم يظنني مصروعاً مخبولا ؟! . أهذا هو النبل الذي توسمته ؟ أهذي هي السماحة التي تخيلتها ؟

ولم يبتعد بضع خطوات حتى سمع من ورائه صوتاً يناديه : يا عم .. يا عم . فالتفت فإذا برجل واقف في باب دكانه يشير إليه : « تفضل .. ! تفضل استريح » وشرع يلحف عليه « بالتفضل » وبالدخول للاستراحة . وبعد قليل من التردد والحيرة دخل وإذا به في دكان حلاق يقع في مواجهة دكان صاحبه الحضري صاحب « الوجدان » فأدرك أبو قدور للحال أن الحلاق كان على علم بالصفقة الفاشلة مما زاده اطمئناناً واستئناساً بالرجل إلى أنه رثى لحاله وأشفق على سنه ورغب في أن يجبر انكساره ويطيب خاطره بشكل ما ! .

وما إن جلس حتى شرع الحلاق — كأي حلاق — يسأله عن الصحة والعافية والأولاد والأحفاد والأسباط والأصهار .. ومن أي ضيعة هو ؟ وما شأنه ؟ ثم ما هي قصة سلته ؟ . وشرع أبو قدور — على إعيائه — يجيبه على أسئلته ويقص عليه قصة وفوده إلى المدينة من أولها إلى آخرها بنفس لاهث وعبارات متقطعة بينما كان الحلاق يبدي

كثيراً من التأثر ومزيداً من التألم والتحرق لما يسمع .

وساد بينهما فترة من الصمت أتاحت لأبي قدور أن يُجيل الطرف فيما حوله من حيطان الدكان – وحيطان الحلاقين غالباً ما تثير فضول النظر – وأتاحت له أن يمتحن قوة بصره الخافت في تفحص ما عُلّق على تلك الحيطان من رسوم وكتابات « وجلالات » .. وأتاحت له أن يمتحن مقدرته على « فك » بعض تلك الحروف عن بعضها لفهم ما تعنيه .

ودونما قصد علّق بصره الضعيف على لوحة جميلة الأحرف بهية المنظر . وبعد جهد قرأها فإذا هي تقول : «القناعة كنز لا يفنى » ثم التفت إلى جدار آخر فقرأ عليه « من راقب الناس مات هماً » وقرأ على جدار آخر « اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب » وقرأ إلى جانبها أيضاً « يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف » ... ثم سمع بعد ذلك يردد في سره : الله .. الله ما أحسن اختيار هذا الرجل لهذه الحكم .. وما أعظم دلالتها على نفسه وأخلاقه . فهو قنوع ولا شك وهو كريم سخي لا يهمه أن يصرف كل ما يأتيه في يومه دون أن يحسب حساباً لغده (وهو زاهد بما في أيدي الناس) وهو إنسان يخاف الله ويخشاه . بارك الله فيه وكثر من أمثاله . ثم سُمع يقول : الله الله .. لقد صدق

الذين قالوا : (إذا خلت خربت) .

وبينما هو كذلك إذا بصاحبه الجديد يدعوه لأن يجلس على كرسي الحلاقة ، فأبى فألح عليه ، فأبى كذلك ، ولكن الحلاق أغراه بالجلوس قائلا : أنظر إلى وجهك في المرآة يا عم وانظر إلى رأسك إنك بأشد الحاجة للحلاقة .. قم واجلس « ولا يهمك » . وبدافع الإلحاح ، وبدافع الإغراء ، قام من مكانه وأجلس نفسه على الكرسي وهو يتمتم : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وما هي إلا لحظات حتى قيل له « نعيماً » . فأجاب : « الله ينعم عليك » ، وعاد إلى حيث كان من الدكان وأحس الآن بأن مهمة جلوسه قد انتهت . وأشعرته قرصات معدته ، وأوصاب مفاصله بأن عليه أن يتدبر أمره ويعود سريعاً وبأيّ شكل إلى قريته . فهمّ بالخروج فانتصب الحلاق في وجهه مستوقفاً قائلا إلى أين ؟ فأجابه على الفور : أسعى في أمري ، دعني أرجوك .. وأنا ممنون منك جداً وشاكر فضلك ومعروفك وإنسانيتك جلست عندك ما يكفيني . وها أنا قد حلقت وقد استرحت وقد ... فقاطعه الحلاق قائلا : لا .. لا ليس هذا ما أعنيه ! . أين الأجرة ؟ .

وأسقط في يدي أبي قدور وصعق ، ولم يعد يدري

ماذا يقول !.. وآخذ يجمجم : الأجرة ؟ الأجرة. ثم جهر : أجرة ماذا يا أخي ؟ فقال الحلاق أجرة ما قصصت لك من شعرك ! .. وترقرقت دمعتان باردتان في عيني أبي قدور ، وجمد في مكانه ، وأحس في رأسه بدوار عجيب .. ثم انفرجت شفتاه الناشفتان ، وانطلق لسانه الجاف الضئيل المتلعثم ليقول : أما قصصت عليك قصتي يا هذا ؟ أما عرضت عليك مصيبتي يا أخي ؟ أو ما علمت منها أني منقطع في الطريق ، وأني ابن سبيل ؟ أهكذا تذل شيبتي ؟ .. وابتدره الحلاق قائلا : أنا لست صعباً ولست استغلالياً إلى هذا الحد الذي تتصور يا عم ؛ فإن لم يكن معك نقود فالسلة .

السلة ؟ السلة ؟ نعم السلة ويكفيني ، والتفت حالا إلى أجيره قائلا : قم « يا حمدو » وخذ من عمك السلة وأوصلها إلى البيت . وقام « حمدو » لينفذ الأمر فوراً ... وأفلتت السلة من يد أبي قدور قبل أن ينتزعها منه الصبي . ومضى الصبي إلى بيت معلمه يحمل الفريسة الباردة ، ومضى أبو قدور يقتلع أقدامه هائماً ذاهلا يتحسس الطريق إلى القرية .

بينَ عبادتَين



بينَ عيادتَين

١

.. وعليكم السلام ورحمة الله .. أهلا وسهلا بالعم (أبو جمعة) .. يا مرحباً بالخالة (أم جمعة) .. كيف الأحوال طمنونا ؟ .. بعد زمان ؟ ! .

ـ الحمد لله بخير من الله .

ـ كيف صحتك يا أم جمعة ؟ أراك متعبة ! .

ـ والله يا أستاذ لا أشكو لك إلا العافية .. الليلة الماضية ما نمت أبداً من شدة المغص في بطني . وما ظننت أن الصبح سيطلع عليّ . ومن أجل هذا بكّرنا وحضرنا لعندك لكي تأخذنا إلى طبيب ناصح فنحن غرباء ولا نعرف أحداً هنا في المدينة .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. نسألك العافية يا رب . ثم أطرقت ملياً وأخذت أفكر : إلى أيّ طبيب آخذها ؟ إن عليها كثيراً من علائم الإعياء .. وإن بها كثيراً من دلائل الخوف والجزع .. إنها عجوز صالحة .. لقد رعتني كما ترعاني أمي عندما كنت جاراً لهم وأنا معلم في قريتهم منذ سنة .. طبيبنا مسافر منذ أسبوع وما سبق لي أن تعاملت مع غيره فاستوثقت من معاملته حتى أذهب إليه الآن . هؤلاء قوم فقراء جاؤوني من القرية ليتخذوا مني دليلا فماذا أقول لهم إن لم أحسن الدلالة ؟ !

وبرق في ذهني اسم طبيب كانت تصلني به معرفة سطحية قديمة ترجع إلى أيام الدراسة ، فقلت لعل هذه المعرفة القديمة تشفع لنا عنده فيزيد من عنايته بنا .

ـ « دايمة » يا أستاذ (قالها أبو جمعة ، وتبعته أم جمعه) ووضعا جانباً فنجاني القهوة ، وهنا انتبهت من تفكيري فقلت : « صحة » .. هيا بنا نخرج إلى الطبيب قبل أن يزدحم عليه الزبائن .

وفي الطريق التفت إلى أبي جمعة مداعباً فأخذت أسأله :

ـ لماذا لم تأخذ أم جمعة إلى دكتور الضيعة (أبو نوفل) ؟ أفما كان ذلك أيسر لكم ؟ فتنهد أبو جمعة ثم انطلق يقول :

ـ ماذا أصنع يا أستاذ ؟ النسوان عقلهم صعب .. وهل تظن أنني لم أحاول أخذها إليه ؟ والله (أبو نوفل) رجل طيب (وإيده طيبة) شهادة لله .. ولكنها رفضت أن تذهب إليه أو نأتي به إليها .. ورضيت أن تتحمل أشد الآلام طوال الليل دون أي علاج ! .

وفجأة انفجرت أم جمعة بغيظها وحنقها الذي ما كنت أتوقعه منها وهي المتعبة المريضة . انفجرت تقول :

إذاً كانت غايتك يا (أبو جمعة) أن أموت بين يدي (أبو نوفل) مثلما مات (فياض) قبل شهر ! . فرد أبو جمعة للحال :

ـ كفى .. كفى يا أم جمعة .. (صار عشرين مرة كررت هذا الكلام) حرام إن الناس لا يموتون إلا بيومهم. ولولا أن (فياض) كان أجله منتهياً لما مات .

وإذ كنت أعرف فياضاً ، فلم استطع صبراً على تبادل هذا الحوار بينهما فسارعت أسأل :

ـ فياض مات ؟؟ فأجابتني العجوز :

ـ نعم مات .

ـ رحمة الله عليه وعلى شبابه الغض . وأخلاقه الرضية .

وقبل أن أسأل عن كيفية موته ، تابعت أم جمعة تقص عليّ قصة موته بنفس لاهث وألم مكتوم :

ـ لقد كان نائماً ذات يوم في البريّة فأحس على (قلنج) شديد في بطنه ومغص حاد فجاؤوا به إلى (أبو نوفل) ولما كشف عليه قال : هذا يحتاج إلى حجامة (بكاسات الهوا) ثم حجمه ولكن (بالجرة) بدلا من (كاس الهوا) . وقال إن ذلك أسرع في شفاء البطن . فقلت :

ـ أعوذ بالله ! . إن ذلك لمضحك حقاً .. الحجامة .. يجريها بالجرة ؟! أنا لم أسمع بهذا من قبل ! ..

ـ نعم يا أستاذ بالجرة ـ جرتنا الصغيرة ـ ولكن هل تدري ماذا حصل له بعد ذلك ؟

ـ ماذا حصل . ..

ـ لقد امتصت الجرة معظم بطنه فاندلق إلى داخلها . وعندها أخذ فياض يصيح ويستغيث . ولما حاول أهله انتزاع الجرة لم يستطيعوا . فهموا بكسرها لكن (أبو نوفل) صاح بهم وتقدم بنفسه إليها فجذبها إليه جذبة قوية داهرة . فانجذبت بلمح البصر سليمة لم يمسّها أدنى سوء . أما بطن فياض فقد ارتد إلى مكانه من جديد . مع صوت لم يبق

أحد في القرية إلا سمعه واجتمع عليه .. وقد كان هذا الصوت المدوي ، آخر ما صدر من فم الرجل بعد أن تقطعت أمعاؤه فأسلم الروح ومات .

٢

« الدكتور خيري لقمان » للأمراض الداخلية والنسائية والأطفال . خريج جامعات أوروبا ومستشفياتها . اخصائي بأمراض الأنف والأذن والحنجرة والتصوير الشعاعي والتحليل . جراحة عامة وعظمية . خبرة سنتين في الأمراض التناسلية والمسالك البولية والجلدية والأسنان ... »

* * *

صدمتني تلك اللوحة المكتوبة بخط عريض وأنيق فعلمت أنني وصلت بصاحبيّ إلى الطبيب المقصود فقلت لهما :

ـ ها نحن وصلنا . تفضلوا . ودلفنا في باب عريض معتم وأخذنا نرقى سُلّم البناية درجة ، درجة ، وأسهم سود عند كل عطفة منه ترشدنا وتقودنا إلى عيادة الطبيب ، إلى أن غدونا في قاعة الانتظار فجلسنا مع الجالسين ، وما

هي إلا فترة من زمن حتى آذن لنا فدخلنا غرفة العيادة . وإذا الطبيب بصدارته البيضاء ، ونظارته الغليظة ، وسماعته حول عنقه ، ولفافته على جانب فمه لم يبق إلا أقلها توشك أن تحرق شفتيه .. إذا به يرحب بنا و « يؤهل ويسهل » . ثم خصني بالتحية والمصافحة وأجلسني على كرسي بجانبه ، بينما ظل أبو جمعة وزوجته واقفين بكل وقار وإجلال . كان أبو جمعة متهيباً من الموقف الذي يبدو لي وكأنه يقفه لأول مرة . أما أم جمعة فقد كانت تصرخ بين الحين والآخر صرخات مكتومة كلما جاءتها نوبة من نوبات المغص الحاد .. وكانت تبدو في ثيابها المهترئة التي يغلب عليها لون السواد ، وفي وقفتها الرزينة الساكنة .. كأنها تمثال من الغرانيت .

وبعد شيء من كلام المجاملة واستذكار الماضي البعيد توجه إليّ يسألني :

ـ خير إن شاء الله .. ما بال العم ؟

ـ حبذا لو قلت ما بال العمة . العمة هي المريضة . والعم زوجها . لقد طرقا عليّ الباب منذ ساعة لمعرفة بيننا ، ورغبا إليّ أن أرشدهما إلى الطبيب الناصح فجئت بهما إليك .

ـ شكراً .. شكراً لك ثقتك يا أستاذ ـ وانفرجت

أساريره عن ابتسامة مهنية عريضة ـ خففت بعض الشيء من هول الموقف بالنسبة للعجوزين . وتسطحت أم جمعة على منصة المعاينة وجعل هو يتفحصها في فمها تارة وفي خيشومها أخرى . . مرة يطبل على بطنها بأصابعه ، ومرة يصيخ السمع إلى ضربات قلبها بسماعته ثم انطلق معها في استجواب :

ـ متى حصل معك الألم ؟

ـ البارحة ليلا .

ـ ماذا تعشيت ؟

ـ برغل .

ـ أين كنت تنامين ؟

ـ في البرية أنطر الكرم .

ـ هل تشعرين بآلام هنا (وكان يضغط على مكان الزائدة من بطنها) .

ـ لا .. أبداً . (فقلت في سري : الحمد لله هذا آخر دليل على أن المغص لا صلة له بالزائدة كما كنا متوهمين ، وكل ما في الأمر هو برد ليل وكظة طعام ثقيل) .

ـ انهضي ... انهضي .

نهضت أم جمعة عن المنصة وهي أشد ما تكون إعياء

ومرضاً من رهبة الموقف (وحراجة الأسئلة) التي كانت توجه إليها ، فضلا عن أن رجلا (أجنبياً) كشف على بطنها لأول مرة في حياتها .. فيا للخجل ، ويا لذل شيباه !.

ـ طمنا يا دكتور .. (عبارة تجرأ الزوج المسكين على طرحها على الطبيب وهو في غاية التهيب والتلجلج) .

فأجاب الطبيب :

ـ لم ينته الفحص بعد .

ولم أتمالك نفسي أن أخذت أردد في سري : ويحه وماذا بقي للفحص؟

لماذا لم ينته بعد ؟ لقد توضح كل شيء : نوم في العراء دون غطاء .. الفصل خريف .. العشاء برغل .. أعراض زائدة لا يوجد !.. فأسوأ الاحتمالات هو (القلنج) على رأي أم جمعة في فياض ! .

على أن الطبيب أردف يقول :

ـ إنها بحاجة الآن إلى (ابرة) ثم إلى تصوير وبعدها أعطيكم النتيجة ..

هيا (يا لطفية) .. هيا احقني العجوز بابرة من النوع الممتاز .

وقدمت لطفية ـ على غير استحياء ـ تمضغ (الشيكلس)

بين فكيها ، وتتراشق في حركاتها ، وتتكلف في مواساتها.. يشفع لها في ذلك كله وجه مليح من الصعب إلا على المتفحص الدقيق أن يعرف أنه مستعار .

وما هي إلا لحظات حتى كانت لطفية قد حقنت أم جمعة بالابرة التي علمت فيما بعد أن قوامها الماء المقطر الخالي من كل غش ! .

ثم نودي على العجوز : هيا إلى غرفة الأشعة . وكان الطبيب قد سبقها إليها فترددت بادىء الأمر .. وتردد معها زوجها الذي بات يحسب حساب أجر الطبيب بعد أن تفاقم أمر المعاينة .. أطرقت في الأرض وهالها النداء .. وكلمة (أشعة) بالذات هالتها أكثر .. وأخذت تجمجم بصمت : أشاعة ! . أشاعة ؟! لم أسمع بها بحياتي .. يا رب ما هذه الأشاعة ؟ ما هذه النكبة ؟

وكنت أنا الآخر في شبه ذهول مما يجري على (خشبة) العيادة من فصول ، ولكنني مع ذلك كنت أراني مدفوعاً من حيث لا أدري لأن أتابع المشاهد حتى النهاية . ولذلك لم أتدخل فيما يجري لا سلباً ولا إيجاباً ، في حين ألقت لطفية بظلها الثقيل على أم جمعة وساقتها نحو غرفة الأشعة وهي تقول مشجعة :

ــ لا تخافي .. لا تخافي .. لن يشق الدكتور بطنك ،

إنه يريد أن يصور بطنك تصويراً فقط .

ـ يا ويل شيبتي يا بنتي ، بعد كل هذا العمر تريدون أن تصوروني ؟ ! . بعد كل هذا العمر تريدون أن تكشفوا على بدني ؟ ! أما كفى أول مرة ؟ يا فضيحتي يا (أبو جمعة) .

وكان أبو جمعة يتردد بين الشماتة والغيظ ! . وكان يحار بين أن ينفجر أو يحافظ على هدوئه . ولكنه برغم ذلك لم يبدر عنه شيء ، فظل متطلعاً إلى النهاية بفضول وتحرق واستسلام .

* * *

خرجت أم جمعة بعد قليل من غرفة الأشعة المعتمة ، تدب على رؤوس أصابعها دبيباً ، وقد نسيت حذاءها في الداخل ، فأنكرتها بادىء الامر لما لاحظت على وجهها من خوف واضطراب ، وعلى مشيتها من رعدة وارتجاف حتى لكأنها الغصن الأجرد تتلاعب به الريح الهوجاء . لهاثها لا ينقطع وعيناها كثقبي خرزتين صغيرتين .. ثم التفتت إلي متفحصة ، ولما آنست أنني أنا هو ! . انفجرت تلومني بغيظ مكظوم :

ـ أهكذا يا أستاذ ؟! أهكذا .. ورطتني بهذه

الورطة ؟! .

يا ليتك يا أم جمعة لم تخلقي .. يا ليتك مت ولم تدخلي هذه المغارة ، مغارة السوء ليرى جسدك رجل (أجنبي) .. يا ناس أنا شفيت يا ناس .. يا ناس لم يبق معي مغص والله العظيم ..

اجتمع علينا أكثر من زبون ، وأبدى استغرابه ودهشته أكثر من زائر أو مرافق لمريض . وتمنيت أن لو غارت الأرض بي على أن أكون في هذا الموقف ولكن لم يكن بمقدوري أن أتهرب من الواقع – فأنا الدليل إلى الطبيب الناصح – فقاطعتها مهدئاً من روعها مخففاً من ثرثرتها أقول :

هيا .. هيا نلحق بالطبيب إلى غرفته ، إنه الآن يكتب لك العلاج وأخشى أن يسمعك فينزعج .

ودخلنا على الطبيب فإذا هو وراء مكتبه يشعل لفافته ويدسها في فمه وقبل أن نسأله عن شيء توجه إلينا بلهجة فيها الجد والرصانة يقول :

– قلما تعذبت في معاينة كعذابي في معاينة هذه العجوز .. احمدوا ربكم أنكم جئتم إلى عندي .. واحمدوا ربكم انني أقتني جهازاً للأشعة أستطيع بواسطته أن أطلع

على خفايا الصدور والبطون معاً ! .

فقلنا : الوصفة يا دكتور . فقال :

ـ سأكتبها بعد دراسة الصورة . ارجعوا إليّ بعد العصر . ثم حدجني بنظرة ذات معنى وقال :

ـ الجماعة بأمانتك يا أستاذ .

وبأعجوبة صبّرت الرجل وزوجته حتى حلول الموعد . لقد كان يتململ بضيق وكان طيلة الفترة ـ من الضحى حتى العصر ـ يعاني من هم وغم باديَيْن على وجهه . كان يبدو لي صدره ضيقاً حرجاً فكأنما يصعد في السماء .

* * *

وعدنا في الموعد المضروب إلى الطبيب . وبعد قليل من التنحنح ، وقليل من التقلقل على الكرسي الدوار ذات اليمين وذات الشمال ، وبعد شيء من الترحيب نشر أمامه على ضوء مصباح خاص صورة شعاعية . وقال مخاطباً أم جمعة :

ـ تعالي انظري يا عجوز .. هذه هي أضلاعك .. وهذا هو عمودك الفقري .. وهذا هو مكان الكلى .. وهذا .. وهذه .. حتى إذا ما انتهى وضع الصورة في مغلفها ودفع بها إلى أم جمعه وقال : خذي . فقالت :

ـ وماذا أصنع بها يا دكتور ؟

ـ احتفظي بها فإنها تلزمك مع الأيام . ثم انكب على مكتبه وشرع يكتب الوصفة الطبية . ولما انتهى منها همّ بتسليمها لأبي جمعة لكنه أحجم في اللحظة الأخيرة فبقيت في يده وقد حول نظره إليّ كأنما يريد استئناساً برأيي أو استلهاماً من وجهي ، أو تثبتاً من هوية الدافع للأجرة .

إلا أنني لم أسعفه بشيء ، فرجح عنده بذلك ، أن الذي سيدفع هو أبو جمعة نفسه ولست أنا ـ وهذا ما رميت إليه بصمتي فلعله يرأف بحاله البائسة ـ وعندها قال ـ ولا تزال الوصفة بيده ـ :

ـ هذه هي الوصفة ، فهات يا أبا جمعة .

ـ كم تأمر يا دكتور ؟

ـ (عشرة) أجرة معاينة .. (ثلاثون) ثمن الابرة والصورة .. يعني أن المجموع هو أربعون ليرة فقط .

ـ لا يا دكتور هذا مبلغ كبير ـ خرجت من أفواهنا نحن الثلاثة على غير اتفاق ـ ثم تابعت وحدي ، وقد شعرت بهول الصدمة التي واجهتني وأصابت صاحبي ، تابعت وحدي أقول :

ـ لا يا دكتور (أربعون ليرة) ! مبلغ باهظ لا

يستطيعان سداده لك.. فهما كما ترى .. فقراء ، مساكين ، رجائي أن لا ترهقهما ولن يضيع الله أجرك .

— طيب .. من أجلك بلا خمس ليرات من أجرة المعاينة ، بلا ليرتين من ثمن الإبرة . يبقى ثلاث وثلاثون ليرة فقط . وأمري لله . (وكانت لهجته في هذه المرة حادة وحاسمة) .

وسادت فترة صمت ووجوم تحسس خلالها أبو جمعة صُرّة في عبه ، ثم فضها فإذا فيها عشر ليرات وبضع فرنكات صبها مرة واحدة أمام الطبيب وأتبعها بقسم عظيم : إنه لا يملك سوى هذا المبلغ من كل دنياه . ولكن الطبيب أوشك أن يتقطع من الغيظ بل وهمّ أن يمزق الوصفة لولا أن سارعتُ إلى يديه . ولولا أني مددت يدي إلى جيبي في محاولة لإتمام المبلغ الذي طلبه . بقيت الوصفة سليمة ، لم يمزقها الطبيب ، ولكني لم أستطع أن أكمل له ولو قرشاً واحداً من جيبي . ذلك أن أبا جمعة أقسم عليّ يميناً مغلظاً ، بينما أرضت أم جمعة الطبيب بأن خلعت له من أذنيها بقايا قرط ذهبي . كانت لا تزال تحتفظ به ذكرى منذ صباها وأيام عزهما الآفل القديم .

ثم خرجنا بالوصفة العتيدة التي لو نشرت في جريدة لملأت منها عمودين . ومع أن خبرتي بقراءة مثل هذه

الألغاز محدودة ، فقد تمكنت من أن أعرف أن كل ما فيها إن هو إلا مقويات وفيتامينات ، وأشياء من هذا القبيل لا تمت لأي مرض بصلة ! .

* * *

لم نكد نخرج من باب العمارة الرئيسي حتى كانت الوصفة الطبية والصورة الشعاعية مزقا مزقاً بين يدي أبي جمعة دون أن يتاح لي فرصة انقاذهما منه ..

ولقد داخلني كثير من العَجَب ! . كيف يدفع ثمنهما كل ما يملك من حطام الدنيا ثم يمزقها ؟ أفما كان بمقدوره أن لا يدفع وأن لا يأخذهما ؟ ! وأن لا يمزقهما ؟؟

وفي الطريق .. وقبل أن نفترق : أنا إلى بيتي وهما إلى القرية .. سمعته يقول لها بخفوت وألم مرير :

ــ ها نحن نعود إلى القرية بلا كيس طحين ، وبلا سترة لي ، وبلا وصفة ، وبلا قرط ، وبلا دواء .. أرجو أن تكوني قد رضيت يا أم جمعة وزال عنك العناء ..

وسمعتها تردد في مرارة والعبرات تخنقها : « نعم أنا السبب .. يا ليتني تعالجت عندك (يا أبو نوفل) .. يا ليتني لقيت مصيرك يا فياض » .



عَفَافٌ

عَفَاف

سطعت الأنوار من المصابيح الكهربائية التي ضمت إلى أسلاك متعارضة في سماء الدار .. وانطلقت الزغاريد تشق سكون أمسية الصيف الندية .. وفاحت ريح عبقة ، وانتشر في أرجاء الدار الواسعة ، الشذا المضمخ طيباً وعطراً .. وأجلست العروس على كرسيها بين أترابها وجاراتها والقريبات . ثم أديرت كؤوس الشراب ووزعت قطع الحلوى بين أصوات ناعمة شجية ، وألحان حلوة عذبة تأخذ بمجامع القلوب ، فغمرت الجميع نشوة لا حد لها ، واستبد بهن شعور من الغبطة ممتع بديع .. إلا واحدة كانت هناك غير بعيد عن الدار ، تلحظ ذلك كله وتتملاه بين حبات من الدموع تنفرط من عينيها حارة غزيرة ، وزفرات لاهبة تصعدها من الأعماق . إنها (عفاف)

بنت الجيران التي وقفت خلف شق في نافذة غرفتها المطلة على الاحتفال . لم تستطع (عفاف) أن تقف طويلا خلف شق النافذة ، فقد دب في أوصالها وهن لم تتمالك معه أن انصرفت عن المشهد تخنقها عبرتها . ثم طرحت نفسها على أرض غرفتها فارتمت متهالكة ملتوية العنق مبعثرة الشعر ، شاردة اللب والبصر ، حول عينيها بعض تورم ، وعلى فمها أكثر من سؤال ثم أخذت — وهي شبه غافية — تخاطب إنسانة في نفسها بصوت خفيض :

.. هكذا كتب عليك يا (عفاف) : تحرق بنار الجسد واكتواء بلهيب الذات والغيرة .. فها هي ذي (نوال) بنت الجيران تزف الليلة إلى عروسها لتنعم بوداعة السكن إلى الزوج ، ثم بدفء الحنان على الطفل .. وأنت ، كما أنت يا (عفاف) : تمر بك الأيام والسنون ، ولا شيء لك سوى عواطف تضطرم ، وأحلام تتلاشى .. فإلى متى يا رب ؟ إلى متى أنتظر ؟ ألا يكفي أني دخلت الثلاثين ؟؟ ..

يا رب .. أنا لست أبتغي عرساً تسطع فيه الأنوار ، وتصدح الألحان وتعلو فيه الأهازيج . ولا زفافاً يضوع فيه العطر ، وتوسوس الحلي ، وتنطلق الزغاريد .. إن كل ما أبتغيه هو إنسان .. هو زوج أبدد لديه غيوم وحدتي ، أسكن إليه . أتفيأ ظله في صحراء هذه الحياة القاحلة، وفي

درب عمري المجهول .. بل إن كل ما أبتغيه يا رب هو أن أسمع إلى جانبي من يناديني – ولو لمرة واحدة – بذلك النداء الخالد ؟ « ماما .. ماما » . أريد أن أكون أماً ويكون لي طفل .. طفل أضمه إلى صدري ، وألقمه ثديي ، وألثم وجهه وعينيه .

أريد طفلا طالما استشعرت – واهمة – نفسه الناعم يتردد في أذني فأحسست نشوته تسري في فؤادي .

ويا رب .. لا حاجة لي – وأنت العليم – أن أطلعك على ما يعتلج في نفسي كلما مررت بواجهة مخزن يبيع لعب الأطفال ، أو عما يهتز في أعماقي كلما شاهدت قبعة صغيرة أو عربة صغيرة – ولو كانت فارغة – أو شريط شعر ملون .. أو كلما لاحت لناظري طفلة تدرج إلى جانب أمها ، أو طفل استلقى على ذراعي أمه في طريق ..

إنه الشعور بالحياة والموت معاً . إنه شعور غريب ، عنيف ، لذيذ مؤلم . إن فيه خدراً لكل أحاسيسي .. إن فيه ناراً تلامس كل عصب في جسمي ..

وما أن وصلت الخواطر والتصورات بعفاف إلى هذا الحد .. حتى أخذت تتقلب في مكانها ، ثم جلست من ارتماءاتها وهي تفرك عينيها وتديرهما فيما حولها بشيء من التفحص والاستيحاش .. ثم لم تلبث أن سمعت وقع

أقدام تقترب من غرفتها . وانفتح الباب برفق .. وإذا أمها فيه واقفة . وعلى وجهها وجوم متلبد ، وفي لسانها عقد توشك أن تنفك لينفلت من ورائها حديث طويل .. ثم ألقت التحية : مساء الخير يا عفاف . فردت عفاف : مساء الخير يا أمي .

وما كادت الأم تدخل وتجلس حتى انطلقت تقول :

إلى متى ؟ .. إلى متى يا عفاف تعيشين في هذه الهواجس السود ؟ لقد حزرت أنك لن تحضري حفلة العرس ولذلك لم أحضرها أنا أيضاً ، ولكنني كنت أظن أنك ستنامين مبكرة ، ولم يدر في ذهني أنك ستسهرين إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل ! . تتقلبين في هموم تنطق بها هذه العيون الرخوة الحمراء ، ويبوح بسرها هذا الوجه الشاحب ! ..

فقالت عفاف : مهلا يا أماه .. مهلا لا تكثري علي من اللوم ، ولا تعجبي من سوء حالي ، بل لومي من كان هو السبب أصلا في هذا الشقاء الذي أعانيه ، وسوء حالي الذي أكابده .

— وماذا تقصدين بهذا الكلام ؟ ومن تعنين بهذا التعريض ؟

— أقصدك أنت يا أمي ! .

– تقصديني أنا ؟ ! .

– نعم أنت .. لأنك أنت السبب ! .

– وهل أنت جادة فيما تقولين يا عفاف ؟

– نعم ولست بهازلة . فأنا لا زلت أذكر كيف أنك – منذ أكثر من عشر سنوات – رفضت خطبة ابن عمتي بحجة أنك ستكملين لي دراستي .. ولا زلت أذكر كيف أنك رفضت خطوبة أخرى بحجة أنني لا زلت صغيرة وخطبة ثالثة ورابعة .. وأنت تصطنعين شتى المعاذير والحيل في رفض الناس . وقد كنت أنا حينذاك فتاة غريرة لا أملك من أمري شيئاً ولا أعرف مدى خطورة ما تفعلين على حياتي وعلى مستقبلي !

ولكن الأم لم تملك نفسها أن قطعت الحديث قائلة :

أهكذا ! . مرة واحدة .. تلقين علي يا عفاف باللوم كله ؟ أهكذا تتهمينني بالإساءة إليك وأنا أمك التي ربتك وتعبت بك الأيام والليالي ؟؟

إن الذي قلته صحيح فقد رفضت عدداً من الخطاب طلبوا يدك .. ولكن لا تنسي أن هذا شيء قديم وقد مضى عليه سنوات . وكذلك لا تنسي أنني كنت وقتئذ أبحث لك عن الأحسن ، وأتطلع إلى الصهر المثالي ، الصهر الذي

يناسب عائلتنا في علمه ، ومورده ، وشكله وأصله وفصله.. بحيث يفوق في مزاياه جميع أصهرة العائلة .. إلا أنني لم أوفق إليه على الرغم من تشددي على تلك الشروط . فما ذنبي ؟

– ذنبك أنك كنت صلبة ، وأنك كنت متشددة كما أقررت أنت الآن لي .

– بل إن الذنب ذنبك يا عفاف وأنت بهذا الاتهام تجبرينني على أن أصرح بأشياء كثيرة على الرغم مما أشاهده عليك من دلائل الإعياء وملامح الضيق والسأم . وإن كنتِ الآن غير ذاكرة فسأذكرك بكل شيء .

منذ حوالي سبع سنوات يوم خرجتِ إلى الحياة العملية (معلمة) لأول مرة بعد انهائك الدراسة .. أتذكرين كم واحداً تقدم لخطبتك ؟ لقد تقدم الكثير ومنهم (المحامي نديم) نديم هذا الذي رفضته مع أنه أهل لك فهل تذكرين ماذا كانت حجتك يومئذ ؟ :

إن أهله بسطاء .. إن أهله متأخرون .. لا يعرفون تقاليد الزيارات .. اختلاطهم بالمجتمعات قليل .. أمه (غشيمة) أخجل من أن تكون حماتي .. تلك كانت حججك في رفضه ولم نشأ أنا ووالدك أن نقول لك (لا) .

ثم (يحيى) زميل أخيك في الدراسة ألم يتقدم إليك وبإلحاح ؟ ماذا كان يعيبه ألم يكن على أهبة التخرج مدرساً مع أخيك (مروان) ؟ ألم يكن مناسباً لك في ثقافته وهيئته ونظرته إلى الحياة ؟ فلماذا لم تقبلي به ؟ ماذا كان اعتراضك عليه ؟ :

إنه ليس من أبناء الأسر المعروفة .. إن أباه قروي نزح إلى المدينة والناس لم ينسوا ذلك بعد . وأنا لا أحب أن أربط مصيري بابنه وأتعرض لانتقادات رفيقاتي وقريباتي والناس ...

وفي هذه المرة أيضاً لم نشأ أن نقول لك (لا) .

ثم (إحسان) الشاب العصامي ذو الخلق، الذي أحرز الثقافة والوظيفة المحترمة بدأبه وجده . لماذا أحجمت عنه ؟ ماذا قلت في رفضه ؟ ألا تذكرين ؟ :

وماذا يعني أنه ذو خلق ؟ أنأكل ونشرب ونلبس من أخلاقه ؟ وهل تبني الأخلاق (فيلا) ؟ وهل تشتري الأخلاق سيارة ؟ إن دخله محدود فليس له إلا راتبه – وإن كانت وظيفته كبيرة – إن الناس (يشيعون) عنه أنه متدين ! وإني لن أربط مصيري بإنسان يعترض علي بلباسي أو في غدوي ورواحي .. أنا لا أوافق على إنسان ربما ألزمني بتغطية شعري إن لم يتماد فيفرض علي الحجاب .

أنا لا أطيق واحداً من هؤلاء فلقد سمعت عنهم من صديقاتي وقرأت عنهم في (المجلات) الشيء الكثير !

وفي هذه المرة أيضاً لم نشأ أن نقول لك (لا) .

ثم تلاها مرات ومرات . وكنت أنت تتذرعين وترفضين . فهل تذكرين شيئاً من هذا أم لا تذكرين ؟

وهنا خرجت عفاف عن صمتها وإنصاتها لتقول : نعم .. نعم إنني أذكر ذلك كله وأذكر معه أنني ما كنت على خطأ في كل ما جرى ! ..

ألست أستحق شاباً خيراً من جميع أولئك الذين تقدموا إلي ؟ ألست متعلمة ؟ ألست موظفة ذات دخل ؟ ألست على جانب من الحسن والجمال ؟ . كم كنت تفاخرين بي في المجالس ؟ كم كنت تتباهين بجمال شعري . وخفة دمي . وبياض لوني وذكائي في كل زيارة اصطحبتك فيها ؟ ! إذاً : كنت استحق الشاب الذي بحثت عنه طويلا ورفضت من أجله الكثير . وإن كنت لم أحظ به .

— كأني أشم من كلامك رائحة غرور كبير يا عفاف أحسب أنه هو الذي كان يسيطر عليك . ولعله هو السبب فيما آلت إليه حالك التي منها تتألمين ! ..

— وأين وجدت الغرور يا أمي : إن كلامك هذا لعجيب ! ..

ـ ولكني لا أجد فيه ما يدعو للعجب واولا حرص مني على مشاعرك لمضيت معك في تفصيل طويل .

ومع هذا فإني أقول لك باختصار : إنه داء العصر الذي تعاني منه معظم الفتيات ولا سيما المتعلمات والموظفات منهن .

ـ هل أستطيع أن أفهم من كلامك هذا أن (الغرور) هو الذي فوت ويفوت فرص الزواج على هذا العدد العديد من الفتيات اليوم ؟

ـ نعم .. ولكن لا على أن (الغرور) هو وحده السبب في ذلك . إنه سبب مهم إلا أن أسباباً كثيرة تشاركه الأهمية .

ـ لنظل الآن في حديثنا عن (الغرور) : هل علاجه في رأيك ألاّ تتعلم الفتاة ؟ وألاّ تتوظف ؟

ـ لست أقصد هذا أبداً ، ولا يمكن أن أقصده ولولا ذلك ما حرصت على تعليمك وإنما الذي أرمي إليه وألاحظه ، أن غالبية المتعلمات يعشن في وهم وخيال ، يحلقن في عليين ، يطللن في كبر وتيه على بقية الناس ، مما يعزلهن عن الناس ويؤثر في مجرى حياتهن .

ـ والوظيفة ... ما علاقتها بالموضوع ؟

ـ وكذلك (الوظيفة) فأنا لا أنكرها على الفتاة عندما تكون في المجال الذي يحفظ عليها كرامتها وأنوثتها

كالتعليم مثلا . ولكنني ألاحظ أن أكثر الفتيات ذوات الدخل يتعالين ويشمخن ويثقلن بالمتطلبات والمساومات ويضايقن بالشروط والالتزامات التي يضعنها على كل خاطب أو راغب . ولا سيما إذا كان للأهل طمع أو حاجة في موردهن ، ومن هنا كان الإيذاء بالغاً عليهن بسبب الوظيفة التي تقف حائلا بينهن وبين الناس في كثير من الحالات .

— وعن أثر (الجمال) في المشكلة . وقد نوهتِ إليه ، ماذا تقولين ؟

— إذا أردت الحقيقة ، فإن الكلام في هذه النقطة محرج لي ولك بآن واحد ولعل من المناسب أن نتجنب الحديث فيها .

— لكنك يا أمي لم تزيديني بهذا الكلام إلا فضولا لمعرفة الجواب !

— إذا كان لا بد من الحديث فليكن بصراحة ليس فيها مواربة :

إن الفتيات اللواتي لا يتوهمن الحسن والجمال في أنفسهن نادرات . فما من أم إلا وتجد — بعين الأم — أن ابنتها ملكة جمال ، وحتى إذا لم تكن كذلك فإنها لا تدخر وسعاً في كيل المديح لها والإطراء عليها ... كيما (تروّج)

لها وتحسنها في أعين الناس ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

وفضلا عن ذلك فإن وسائل (الميكياج) الحديثة وأزياء اللباس (والتسريحات) ما تركت فروقاً تذكر بين جميلة وغير جميلة : فمن كان شعرها «خفيفاً» حشته ، أو أسود شقرته . ومن كان لونها أسمر بيضته، ومن كانت قامتها قصيرة أطالتها بكعب عال أو (بسد عال) . ومن كانت عيناها ضيقتين وسعتهما بشتى الخطوط والألوان وهكذا ...

والذي نشأ عن ذلك هو اعتداد معظم الفتيات ــ وهماً أو حقيقة ــ بمحاسنهن ولا شيء يقتل البنت (يا عفاف) كاعتدادها بحسنها وفتنتها سواء كان ذلك حقيقة أو وهماً لأن المعتدة المغرورة تجد أن كل من هم إلى جانبها دونها منزلة ومقاماً ، لها عليهم حق الاحترام وواجب الإطراء والتقدير ! ..

ثم هي لا ترضى بأول خاطب يتقدم لها ولو كان مناسباً ولا بالثاني أو الثالث أو الرابع .. فهي كلما ازداد خطابها ازداد تيهها ودلها .. وبالتالي يصعب عليها أن ترضى وتختار واحداً من المتقدمين ؛ في الوقت الذي يبدأ فيه الراغبون فيها ينكمشون عنها ويتوجسون منها عتواً واستكباراً ومساومات . وتكون النهاية أن لا تتزوج

أبداً فتبقى (وحيدة) ، او تتزوج ممن لم تكن ترضاه بالأصل « خادماً » لها ! . والطامة الكبرى أن تبقى بعد الزواج مغرورة بحسنها الذي تحاول فرض سلطانه، فتحيل بيت الزوجية إلى دار حرب لا تنتهي ، ومشاحنات لا تنقضي إلا بطلاق — في الغالب — تتبعه « عنوسة » إلى إلى الأبد ..

— ولكن صراحتك هذه مرة جداً يا أمي وإني لأراها تضعني وإياك في قفص اتهام واحد .

— قلت لك قبل أن أصارحك : إن الجواب محرج لكلينا ، فأبيت إلا الجواب ومع هذا فالمشكلة ليست تمسنا نحن فقط وإنما تمس معظم الفتيات والأمهات.والبلاء أعم وأشمل مما تتصورين .

وهنا وجدت عفاف الفرصة مناسبة لتنقض على أمها بسؤال تدينها فيه طالما حاولت ذلك جاهدة منذ البداية :

— أرأيت يا أمي كيف أنك تتحملين جانباً كبيراً من مسؤولية ما آلت إليه حالي القلقة اليائسة في (وحدتي) الموحشة هذه ؟ فأين كانت ملاحظاتك هذه وآراؤك تلك حتى حجبتها عني إلى الآن ؟ ولماذا لم ترشديني إلى الأصلح ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ..

— مهلا يا عفاف مهلا .. أنا كنت مثلك بل مثل باقي

الأمهات غير واعية لشيء من كل ما ذكرت ، ولكن الأيام علمتني بعد أن صرت أماً .. أماً متقدمة في السن قد تجاوزت الخمسين .. علمتني التجارب وعركتني الأيام ، الأيام التي لا ترحم .. الأيام التي تعطي دروسها قاسية ، وتلقن عبرها مرة حنظلا .

وأنا وإن لم يتح لي أن أتمم دراستي مثلك .. فإن الملاحظة الطويلة ثقفتني ، وقراءة قصص الناس في مجتمعاتهم وبيوتهم وفي الكتب قومت كثيراً من آرائي ، وعدلت كثيراً من نظرتي إلى حقائق الأشياء ..

ثم لا تنسي بعد ذلك كله أنك في رأينا جميعاً — أنا ووالدك وأخوتك — صعبة المراس ، عنيفة في آرائك التي تؤمنين بها لذلك كنت أحاذر دائماً أن أتعرض إلى حياتك العاطفية بأي شيء من هذا القبيل .

أطرقت عفاف ملياً ، وأخذت تهز رأسها هزاً وئيداً رتيباً .. وهي ترسل التنهدات الحارة ، وقد عقدت يديها إلى صدرها ، وبدا كأنما غرقت في بحر من التفكير العميق .. وبعد برهة قطعت صمتها لتقول :

— لست قانعة بأن كل فتاة (وحيدة) يعني أنها مغرورة . وإلا فما ذنب (نادرة) قريبتنا ؟ وما قصة (مديحة) صديقتنا ؟ وما حكاية (أمل) بنت جيراننا ؟

ومن منهن التي تعتد بعلمها او وظيفتها او حسنها ؟؟ ليس فيهن واحدة أتمت دراستها ، أو تزيد في حسنها ورونقها عن المعتاد المألوف .. بل ما حكاية الكثيرات من أمثالهن قعيدات البيوت ، أو طليقات الشوارع ممن فاتهن سن الزواج أو يكاد .. ما حكايتهن ؟

– لقد قلت لك إن الغرور سبب من الأسباب المهمة في المشكلة وليس أكثر ، ولا يخلو أن يكون إلى جانبه أسباب كثيرة تشكل (بلاء) مشتركاً عاماً أو خاصاً بين الفتيات .

وخذي مثلا (نادرة) : إن الذين جنوا عليها هم أهلها لكثرة ما أبهظوا وتشددوا في مهرها . وقد علمت أن آخر شاب طلبها – وقد كان ذلك منذ خمس سنوات – اشترطوا عليه مهراً مقداره عشرة آلاف ليرة،عدا عن المتطلبات الكثيرة الأخرى ، فانصرف عنها وعرف معظم الناس تشدد أهلها في المهر والتكاليف فانفض عنها الخطاب.

– و(مديحة) ؟ ما شأن مديحة ؟

– أما (مديحة) : فأنت تعلمين أن أختها (سناء) قد تزوجت من ذلك التاجر الغني الأرمل ، الذي غمرها وأهلها بالهدايا والمهر العظيم ، الذي لا يقدر عليه غيره ! إلا أن أهلها أخذوا يشترطون مثل هذا المهر على كل من

جاء يخطب (مديحة) بعد أن تم زواج أختها سناء . ولعلك تذكرين كيف أن خطوبتها كادت تتم منذ بضع سنوات ، على ذلك الشاب العصامي الذي قالوا إنه يحتل منصباً لائقاً في القضاء ، لولا تعنت أهلها بقضية المهر بحجة (أن لا ينكسر خاطر بنتهم مديحة) التي يجب أن يقدم لها مثلما قدم لسناء ! .

— و (أمل) ؟ ما قصتها ؟ ماذا ينقصها ؟ لماذا هي (وحيدة) إلى الآن ؟

— أما (أمل) فأرغب أن لا أخوض في الحديث عنها لأن قصتها طويلة ، ومشكلتها أم المشكلات ! .

— لكنني بحاجة لأن أعرف وأعرف بعمق .. وحق لي عليك أن تحيطيني علماً بكل ما ينفعني في هذه الحياة .

— ما دام الأمر كذلك ، فاسمعي قصتها وإليك ما تريدين :

إن قصة (أمل) يا عفاف هي قصة الفتاة الضائعة التائهة في عصرنا هذا ، إنها قصة الفتاة التي بهرها وخلب عقلها حب التقليد للأجانب (والأكابر) وكل جديد . فباتت لا هي بالعربية المسلمة لأنها فقدت أصالتها ، ولا هي بالفرنجية الصميمة ، لأنها فاقت الفرنجيات في زخرفة

نفسها وتزويق لباسها والتصنع في مشيتها وتنميق الكلام .

إن (أمل) من هذا النوع الذي يظن أن الزوج إنما يقتنص اقتناصاً من الشارع ، إثر لفتة من عنق أو طرفة من (رمش) ، أو نفحة من طيب ! .

إن (أمل) ضائعة مع قطيع طويل .. طويل من الضائعات التائهات اللواتي جنين على أنفسهن وعلى الأخريات من بنات جنسهن ، بطيش عقولهن وغفلتهن وبسطحية نظرتهن إلى الحياة ..

لقد غاب عن بال (أمل) وبال الكثيرات من مثيلاتها : أن أكثر الشباب تبذلا وخفة لا يبحث عن الزوجة — حين يبحث عنها — في الشوارع والطرقات . أو على الأقل ، لا يلتقطها من هناك ، وإن التقطها — على أسوأ الفروض — فهو لا يرضى لنفسه — وهو يفتش عن زوجة وربة بيت — مثيلات (أمل) من المستهترات . إنها ومثيلاتها يصلحن بنظر رواد الشوارع والمنعطفات للغزل ، للمتعة ، للمشاكسات الكلامية ليس غير ! وإذا حصل وخطبت ولحدة منهن — كما خطبت (أمل) (لساهر) صديق أخيها (زياد) منذ سنتين — فإن هذه الخطوبة لا تنتهي إلا بالفشل غالباً . وهكذا انتهت خطبتهما بعد فترة ممتعة قضياها في ظلال (التحرر) الوارفة ، وبين أحضان

« التقدمية » الغناء . يتنقلان حالمين راغدين بين « حقول التجارب النفسية » « والاختبارات المزاجية » .. حتى إذا ما انتهت التجارب والاختبارات بالإخفاق نتيجة الملال وحب التجديد .. فإن (سنة العسل) تكون هي الأخرى قد انتهت فجأة على قرع أسنان الندم ، وهي تعض على كعب كأس كان يحوي حلاوة الشهد منذ حين !

أما هو فيتابع طريقه باحثاً عن حظه في مكان آخر ، وأما هي فتصبح فتاة (من الدرجة الثانية أو الثالثة) لا هم لها — وقد أحست بالخطر — إلا أن تحاول النهوض من كبوتها بمزيد من الزخرف والتزين ، ومزيد من التبذل والتزويق علها تحظى بمجرب جديد يكتب لها معه الحب فالزواج (فهن لا يؤمن بزواج لا يسبقه حب فهكذا قرأن في قصص الحب ومجلات الهوى والأفلام) ولكن هيهات أن تحظى بالزوج عن هذا الطريق .. وأظنك بعد هذا قد فهمت لماذا لا تزال (أمل) حتى الآن وحيدة على قارعة الطريق ؟ !

وما كادت الأم تنتهي من كلامها حتى بدت عفاف وكأنها أُسقط في يدها على الرغم منها .. لذلك جعلت تفرك جبهتها بأطراف أصابعها كمن تبحث عن كلام أوشكت أن تدلي به حين ضاع منها فجأة في أغوار ذهنها

العميق .. إنها لا تريد أن تسلم هكذا .. دفعة واحدة لآراء أمها وتفسيراتها .. إنها تريد أن تتوسع في بحث المشكلة التي تعاني منها .. إنها تريد أن تسمع أجوبة غير التي سمعتها من أمها حتى الآن .. بل إنها لتتلمظ مَراراً في فمها ، ولتحس وقراً في أذنيها بعد الذي سمعته .. وإنها لا تدري لذلك سبباً ؟ ! هل تراه وقع الحق ؟ أم تراه زيف الاحتجاج ؟ .. إنها لا تدري ! . إن كل ما يشغلها الآن : البحث عن شيء تقوله فلا تقف أمام أمها عاجزة عن القول في مظهر المستسلمة ..

وفجأة أسعفتها ذاكرتها بشيء فانطلقت تقول :

ـ ولكنك يا أمي قلت قبل قليل : « إن (أمل) من اللواتي يجنين على أنفسهن وعلى الأخريات من بنات جنسهن » وقد عرفت رأيك في كيفية إضرارها بنفسها . أما كيف تضر بالأخريات فهذا ما لم أفهمه .. إذ كيف يمكن لها أن تضر بي ـ مثلا ـ أو بغيري من الفتيات ؟ وهل « الزواج سوق مضاربة » حتى يكون تبادل التأثير ذا شأن بين الفتيات إلى هذا الحد ؟ .

ـ ما هذا المنطق يا عفاف ؟! . غير أني لا أريد أن أتهمك بضيق المدارك فأنت ابنتي على كل حال وعذرك أنك تعيشين المشكلة وتعانين الأزمة ، والذي يعيش في

الشيء ويعاني منه قلما يدرك حدوده وجوانبه . وإنما يدرك حدود اللجة من ليس يعاني من آلام الغرق فيها . إلا أنك بهذا المنطق تضطرينني لأن أكون أكثر صراحة معك في القول ، وأكثر انفعالا معك في الحديث . فلقد أثرت في نفسي ألماً دفيناً وأشعلت بي ثورة لاهبة على كل (أمل) ، إن لم أقل على كل بنت من بنات هذا الجيل .. ثم تابعت تقول :

ألا ترين معي أن (أمل) ومثيلاتها شكلن ويشكلن مع الأيام قدوة غير حسنة للمئات ، بل للآلاف من الفتيات اللواتي انزلقن أو يكدن ينزلقن إلى مثل سلوكها المستهتر ، الذي لا يرضى عنه الله ولا عقل سليم ولا ذوق صحيح ؟ ألم يأمرهن الله تعالى بالستر فكشفن ، وبالحياء فهتكن ! تارة بحجة التطور ، وتارة بذريعة التحرر . ومرة باسم التمدين ؟.. ثم قولي لي : ما الذي بقي في المرأة محجوباً عن الرجل (بفضل أمل ومثيلاتها) ؟

أي نهد لم يندلق ؟ وأي نحر لم ينكشف ؟ وأية ذراع لم ينحسر عنها كمها ؟ بل أي شعر ، وأي هدب وثغر لم تعمل به أدوات الزينة تشذيباً وتهذيباً .. لا لشيء سوى الإغراء والعرض على الجنس الآخر في الشوارع في الحدائق ، في المكاتب ، في السينما في المشافي ، في كل مكان ؟؟

إنهن بهذا يا عفاف جعلن من أجسادهن سلعة ومعرضاً . ومن محاسنهن ملهاة ومحط نظر لكل ذي نظر . ومتعة رخيصة متنقلة مبذولة في كل مكان .

وقد أدى ذلك كله إلى تغيير منطق الزواج من أصوله . عند كثير من الرجال أنفسهم : فلماذا الزواج ؟ أليس كل ما يبحث عنه الرجل في المرأة مبذولا له منها (بالمجان) ؟ ولماذا الزواج والارتباط به ؟ أمن أجل التبعات الثقيلة المترتبة عليه ؟ أم من أجل (الارتهان) لأمر امرأة واحدة على حساب خسران الحظوة الموفورة لدى الكثيرات ؟ لماذا ؟ لماذا الزواج ؟ إنه (موضة قديمة بالية ..) لا لزوم لها ولا معنى فيها . وإن كان لها لزوم وفيها جدوى ولا بد . فذلك في حدود سن الأربعين .. بعد قضاء الوطر . واختلاس الهوى ، واغتنام الشباب ! .

بهذا المنطق أخذ الكثيرون من الشباب يفكرون ويعملون . لقد استغنوا عن المرأة (زوجة وربة بيت) عندما ملكتهم نفسها (أنثى) وعرضت عليهم جسدها بتفاصيله . ومفاتنها بدقائقها (زميلة ، وجارة ، وخطيبة . ورفيقة عمل أو سفر) .

ومن أجل ذلك ازدادت سوق الزواج كساداً . وبسبب ذلك كان هذا الركام الهائل من العوانس متعلمات

وجاهلات ، جميلات وغير جميلات ، صالحات وطالحات . فالبلاء قد عم ، والمأساة قد طغت في كل مكان ! . (وهنا ضغطت على نبرات صوتها لتقول) : فهل فهمت الآن يا عفاف كيف أن جناية (أمل) ومثيلاتها لا تقتصر عليهن ، بل تمتد إليك بتأثيرها وضرها وإلى غيرك من الفتيات ؟؟

ولم تتمالك عفاف نفسها أن أجابت — وهي تحدق في وجه أمها في شبه ذهول وانبهات — : نعم فهمت .. الآن فهمت لماذا .. الآن أدركت دوري وأدركت الدور الخطير الذي تمثله الكثيرات من بنات جنسي في مأساتنا الرهيبة المؤلمة .. نعم فهمت ! .. الآن فهمت ! ..

* * *

وانتبهتا فجأة .. فإذا الليل قد انصرم ، وإذا الصبح يكاد يسفر ، وإذا العروس قد زفت ، والأنوار قد أطفئت ، وجميع الناس قد انفضوا . وليس من حولهما إلا سكون يلفهما وهدأة ليل تكتنفهما . فنهضت الأم من مكانها متوجهة إلى غرفتها (وهي بادية الإعياء والتعب) وقامت عفاف إلى سريرها ..

كان وجهها تلوح عليه ومضة من رجاء ، وعيناها

تلتمع فيهما بارقة من نور واطمئنان ، كانت تفتقدهما منذ زمن طويل .. ثم سمعت بعد ذلك تناجي ربها في هدأة الليل تقول :

« عفوك يا رب .. رحماك يا الله .. لقد كنت غافلة عنك والآن انتبهت . فلا تؤاخذني بما هجست . ولا تحاسبني بما سبق لي أن قلت أو فعلت ..

يا رب أنا لن أقنط من رحمتك بعد الآن . ولن أجزع على مصيري مهما تقدمت بي السن .. بعد أن لجأت إليك . وأشرقت نفسي بنور وجهك الكريم » .

ثم أسلمت جفونها إلى نوم عميق .

ليلة العيد



ليلة العيد

— ١ —

إنه ليوم مبارك إن شاء الله .. وإنه لصباح سعيد .. الغرباء كثيرون هذا اليوم في المدينة .. وستكون الأسواق مزدحمة بالناس .. غداً عيد الأضحى .. يا رب ارزقني قوت يومي .. وساعدني أن أفي بما تؤمله مني أمي الأرملة الصابرة . وبما وعدت به إخوتي الصغار .

محمود يريد قنبازاً مقصباً . صبيحة : تريد حذاء أحمر . رشيدة : قالت لي بلثغتها الناعمة وببراءتها المحببة : « رباح .. أنا .. بدي .. حلا .. وة » .

أمي : لم تطلب مني شيئاً لأنها تعرف كم أعاني حتى أحصّل القرش . ولكن أليس من حقها عليّ أن أشتري لها

شيئاً ما بمناسبة العيد ؟ .

وهكذا ظل رباح يخاطب نفسه وهو منطلق من بيته صباح يوم « الوقفة » يدفع بكلتا يديه عربته ذات العجلات الأربع وعليها منقل من فحم . وعدد من أسياخ الشواء . ولوحة ذات إطار . مدلاة على واجهة العربة . ربما كانت شهادة ترخيص بالعمل !

كانت الأزقة التي يجتازها ضيقة كثيرة الالتواء . أو هي متاهات مفروشة بشتى أنواع الفضلات .. ولم لا ؟ أليست أزقة حي (التكية) أحد الأحياء الشعبية المعروفة في المدينة العامرة !

إلا أن ذلك كله لم يكن ليعيق رباحاً عن المضي بعربته دون عناء يذكر بسبب الاعتياد . ولم تكن تلك المناظر اليومية مما يلفت نظره فقد ألفها وألفته .. ولذلك ظل يمشي والخواطر تدور في رأسه .. ظل يدفع عربته والآمال تداعب قلبه بالربح المضاعف في هذا اليوم الكريم . وظل لا يولي اهتماماً لتلك الأسراب الكثيفة من الهوام التي كانت تعترض سبيله .

وأخيراً وصل رباح إلى المسلخ واشترى من (المعاليق) ضعف الكمية التي اعتاد أن يشتريها كل يوم .. وانطلق بعربته يشق طريقه إلى حيث يتجمع الناس ويزدحمون

ولا سيما في مثل هذا اليوم الذي يكثر فيه توارد أهل الريف على المدينة لشراء حاجيات العيد .

كان دائم النداء على بضاعته . والترويج لسلعته .. كان حيثما اتجه وأينما حل لا يفتأ ينادي بصوته المنغم الرقيق « شوينا المعاليق يا ناس . السيخ بفرنك ورغيف الخبز بفرنك يا ناس » .

وكان بادي النشاط والهمة . ولا يكاد ينضج الشواء لزبون حتى يأتيه آخر . بل لقد بلغ الأمر بالناس أن تحلقوا عليه حتى لم يعد بمقدوره أن يلبي حاجات الجميع . وهو برغم ذلك لا يفتر له عزم ولا تتناقص له همة ولا يفتأ ينادي بصوته العذب الحنان « شوينا المعاليق يا مخاليق السيخ بفرنك ورغيف الخبز بفرنك يا ناس » .

وهكذا طيلة النهار . حتى إذا أقبل المساء أو كاد ، نفدت بضاعته ولم يبق معه منها إلا القليل . وهنا لم يكن أمامه بد من أن يضاعف نشاطه وتجواله في محاولة لإنقاذ هذا القليل الباقي معه . خشية الكساد والفساد وتضاؤل الربح الموعود .

— ٢ —

الساعة الآن تقارب السابعة مساء . المكان : أحد المداخل المؤدية إلى إحدى الحدائق الكبيرة في حي من الأحياء

« الراقية » في المدينة . الشمس مرنقة على الأفق الغربي في لحظة الوداع . معظم المتنزهين بدأوا يغادرون الحديقة . هنالك ازدحام على الأبواب . ولكن ما بال الناس يزدحمون هنا بشكل يثير الانتباه ؟! هذه كتلة متراصة من الخلق ! وهذان شرطيان يتوسل إليهما نفر من الرجال أن يكتفيا بالذي حصل ! وهؤلاء هم بعض الصبية يتخاطفون الفرنكات المنثورة بسخاء على قارعة الطريق وبين أرجل المارة والمتنزهين . منهم من يفر بها . ومنهم من يأتي بها طائعاً يضعها بين يدي رجل مسن نشر أمامه محرمة وأخذ يناشد الناس أن يوافوه بكل فرنك يعثرون عليه في الأرض !

وها هنا شاب لم يتجاوز العشرين . فيه ملامح كبرياء وأنفة . وعليه دلائل العفة .. يدافع بعض الناس ويدافعونه .. إنه بلا وعي وقميصه بلا كم . وعيناه زائغتان محمرتان . وأوداجه منتفخة . يقذف من فمه كلاماً حاداً سريعاً كأنه شواظ ! .

وفي وسط هذا الزحام كله كان يتبين الرائي عربة لها أربع عجلات تتكىء على جانبها الأيمن . ومن حولها كفتا ميزان مطروحتان بلا نظام . ومنقل منكب على وجهه يحف به فحم ناعم بعضه مشتعل يتوقد . وبعضه يغطيه الرماد .

وكان الرائي يتبين أسياخ شواء مبعثرة ! ودرجاً من الخشب مقلوباً فارغاً ! . ولوحة ذات إطار مهشم يحيط بشهادة للدراسة الثانوية تحمل اسم « رباح عبد الجبار » المولود عام ١٩٤٤ [1] .

الهمهمات والتعليقات لا يُحصىٰ لها عد ، وكل واحد من القوم يدلي برأي ويتكلم من وجهة نظر خاصة . وكلما انضاف إلى الحشد متفرج جديد ، ازداد عدد المستطلعين مستطلع جديد ، وبالتالي معلق جديد .

كان بعض المعلقين يلوم الشرطيين ويرثي لحال هذا الكادح المسكين . وماذا فيها إذا وقف في هذا المكان العام ؟ أهو رجس ؟ أهو بائع مخدرات ؟ أم هو محتال يسلب أموال الناس ؟ ألم يكن بمقدورهم أن يصرفوه بالحسنى عن هذا المكان ما دام (منظره مؤذياً) ولا يليق بهذه البقعة من المدينة كما يقولون ؟ ! ..

وكان بعضهم يوجه النقد إلى (بائع المعاليق) لأنه لم يستجب لأمر الانسحاب فوراً من مكانه . مما أدى إلى حصول الملاسنة ثم الضرب والشتم وقطع كم القميص والرمي بالعربة وماعليها أرضاً .

---

(١) كتبت القصة عام ١٩٦٤ .

وكان آخرون يُحمّلون التبعة للنظام والقانون وليس لمنفذيه . فالشرطي (ابن حكومة) وهو (عبد) (مأمور). فعندما يقول له القانون امنع « المناظر المؤذية » من أن تقف في الشوارع العامة والأحياء الراقية.. يمنع . وعند ما يقول له اسمح.. يسمح .

على أن نفراً من القوم كان يحاول أن يقوم بدور الحياد الإيجابي وعدم الانحياز لجهة من الجهات . وفي نظر هؤلاء :

إن الشرطيين أخطأا بقلب العربة وباستخدام العنف إلى هذا الحد .

وإن القوانين مصيبة عندما تعمل على إبعاد أمثال هؤلاء الباعة عن الأحياء الراقية . والساحات الرسمية . والمتنزهات لأن أمكنة من هذا النوع يرتادها الأجانب ! ويعبرها السياح ! ويمر بها الموظفون الكبار والشخصيات ذات الوزن ! وتطل عليها بيوت أكابر الناس ! إن أمثال هؤلاء الباعة ينحصر مكانهم في الساحات الشعبية والأسواق البلدية حيث روائحهم مألوفة . ومنظرهم غير منفر بل معتاد !

وإن هذا البائع مسكين على كل حال .. لقد خسر بلحظة ما ربحه بيوم . حبذا لو انسحب من مواقعه بسرعة

ولم يتلكأ . إذن كانت المسألة حلت بالوسائل السلمية .. فيا تعساً له من إنسان منكوب الحظ سيء الطالع !

— ٣ —

سجا الليل ، وهبت نسيمات رخية رطيبة تنعش المفؤود وتجلو هم المنكود . مداخل المدينة الرئيسية ، والشوارع العريضة الفسيحة تتوهج بالأنوار الفضية ، وبالمصابيح الأنبوبية اللطيفة المتناسقة . الناس لم يبق منهم في الطرقات إلا القليل ، فمدافع العيد قد أطلقت وثبت أن يوم غد هو يوم العيد . وهنا .. في هذا الشارع الواسع الممتد لا تلمح حولك إلا بنايات حديثة فخمة تدلت عرائشها وأورادها من كل شرفة بدأت تستحيل في هذه الأمسية الصيفية الجميلة إلى عش من أعشاش الغرام المكشوفة .

وهنا .. في هذا الشارع الممتد الذي اشتبكت أشجاره وتعانقت أغصانه لا تقع عينك إلا على نوافذ مفتحة تتدفق بالأضواء من كل لون ، وتزدان بالستائر من كل نوع بين قرمزي وأصفر ، وأرجواني وأحمر . تتموج خلالها الغلالات الرقيقة الناعمة ، وتمتد إليها أنامل النسيم الرقيقة أحياناً فتخفق على الزجاج بإيقاع ساحر أنيق ، كما تخفق

أجنحة الفراش أو قلوب المحبين .

ولا نسل عن السامرين والسامرات الذين يتوارون وراءها أو يظهرون بالأثواب الزاهية ، والنحور المكشوفة ، والحلي البراقة الوهاجة ، والشعور الملفوفة أو المنفوشة ، ومن خلفهم مسجلة تدور باللحن المفضل وبين أيديهم خدم يسعون بالفاكهة الشهية أو بالطعام والشراب اللذيذ ...

كثيرون أولئك الذين سيشربون الليلة (نخب العيد) ، وأكثر منهم أولئك الذين يهيئون لحفلة شاي أو رقص يقيمونها غداة غد إحياء لهذه المناسبة المباركة ، وجمعاً لشمل الأحباب والحبيبات . والأصدقاء والصديقات ! وهنا في هذا الشارع الواسع الممتد ذاته .. لا يمر بك إلا سيارات فارهة صغيرة لماعة . إذا أسرعت فهي البرق الخاطف . وإذا أبطأت فهي العروس تميس ميساً وتختال اختيالا .

على أن لعجلات هذه السيارات « وشيشاً » محبباً إلى الأسماع .. إنه صوت حبات المياه تنفقىء تحت الدواليب وتتطاير على جنبات السيارة وهي تلتهم الأرض التهاماً .. إنه الماء الذي اعتادت أن ترشه البلدية بسياراتها الخاصة صباح مساء في مثل هذه الشوارع دفعاً للغبار المحتمل ، وترطيباً للجو ، وتجميلا للمنظر في أعين الساكنين والسابلين.

ومنذ لحظات كادت إحدى الدمى المتحركة المزركشة، تنكفىء على وجهها عندما عثر كعبها على الأرض الناعمة الرطيبة الملساء. لولا أن تداركتها يد فتاها التي كانت تتأبطها برفق وحنان. مما جعل الاثنين يلعنان البلد والبلدية معاً ويقولان بصوت واحد يفيض غيظاً وتأففاً: «لم كل هذا الماء؟ إن للنظافة حدوداً!»

— ٤ —

كان رباح قد استجمع قواه. واسترد بعض أنفاسه وأعصابه المتوفزة قهراً، ولملم متاعه وشيئاً من غلته التي ضاع معظمها بين أيدي وأرجل المارة والمحتشدين، وأقام عربته المقلوبة بمساعدة بعض المتفرجين وأهل المروءة الذين رثوا لحاله وآلمهم مصابه.

وها هو ذا يدفع عربته أمامه يجتاز تلك الشوارع الفسيحة الجميلة الهانئة التي لفها المساء بغلالته الفاتنة.. قاصداً بيته وأهله. لم يكن أمامه غير أن يرضى بهذه النتيجة التي انتهت لصالحه على أي حال!. فلولا تدخل نفر من أصحاب المروءة في الأمر لبات ليلته موقوفاً، بتهمة ممانعة رجال رسميين من ممارسة وظيفتهم بالقوة! وبتهمة انتهاك

حرمة أحياء وأمكنة ممنوعة على أمثاله من الباعة المتجولين ! وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد فهنالك المحاكمة .. وهنالك ، السجن الذي قد يطول أمده .

وبينما كان يستعرض هذه النتيجة التي انتهى إليها .. بدأت الأفكار تنداح عن مخيلته شيئاً فشيئاً لتحل محلها صورة الصغير محمود واقفاً على باب الدار لا يبرحه منذ الضحى إلا لماماً . بانتظار أوبة أخيه ومعه القنباز المقصب الجديد الذي وعده به .

وطيف أخته صبيحة تتردد على أخيها محمود حيناً بعد حين تسأله هل عاد أخونا رباح ؟ متى يعود رباح ؟ لقد تأخر اليوم ! . قد يأتي من هذه الجهة .. ولكن لا ليس من عادته أن يأتي إلا من هنا .. أنا لن أنام حتى أضع معي على الوسادة حذائي الأحمر الجديد الذي اشتراه لي أخي رباح .

وصورة رشيدة الصغرى التي تتلمظ طعم الحلاوة الموعودة بفمها ، كلما سمعت من أخويها أو أمها كلمة رباح .

وصورة أمه الأرملة الصابرة البائسة وهي ترقب عودته راضياً غانماً ، باراً بوعده لإخوته . جابراً ذلهم وخاطرهم بهذا العيد .. إن لم تكن هي الأخرى تمني نفسها (بمفاجأة)

سنوية خاصة بها ، كجورب أو منديل ، أو بطبخة دسمة تأكلها مع أولادها في العيد .

وعندما تراكمت على مخيلته هذه الصور ، بدأ يحس بدوار في رأسه وصداع عنيف لم يشعر بمثلهما حتى عندما كان في أوج الأزمة على باب الحديقة المشؤوم ! ثم ما زال شريط هذه الصور يروح ويغدو على رأسه حتى أخذ يهذي كالمحموم بكلام خافت غير مفهوم .

على أنه الآن قد وصل إلى مشارف حيهم العتيد .. وها هو ذا ينساب في أزقته الشاحبة ، ومتاهاته شبه المظلمة ، ومنعرجاته ذات الأشباح في محاولة تتكرر كل يوم للنفاذ إلى البيت .

ولكن ما بال العربة في هذا اليوم لها جلبة وقرقعة غير معهودتين ؟ لقد أدرك السر في ذلك ! . إنه يعود اليوم ومعظم الناس في الحي نيام ، والسكون مخيم ، فلا صوت إلا صوت عربته . كان من عادته أن يأتي مع المغرب وهو اليوم يعود بعد العشاء . وهل لأحد من سكان الحي المتعبين المجهدين أن يمكث حتى هذه الساعة سهران لا ينام ؟

إنه الآن يسير في أحد الأزقة الرئيسية ، الزقاق الذي كان يسمع منذ الطفولة بهدمه ليشق مكانه شارع جديد . نعم هكذا ورد في (الخريطة) وهكذا كان يسمع من

المرحوم أبيه منذ طفولته ! .

كان من عادته ألا يعبأ بما يلقى في أزقة الحي من أنواع الهوام والمخلوقات ! . ولكنه الليلة يبدو أرحم ما يكون بها .. فهو يحذر ما استطاع الحذر إيقاظ جماعات الذباب الهاجعة بأحلامها اللذيذة فوق أكوام القشور والنفايات – إياها التي مر بها في الصباح – وإذا ما انفرط – عن غير قصد منه – عنقود ذباب كان يتدلى من قرنة بين جدارين .. سارع إلى الاعتذار إليه وتمتم قائلا : معذرة أيها الذباب .. لقد أسأت إليك وعكرت عليك صفو أحلامك .. ولكن ليس ذلك عن عمد مني فسامحني ! وهو الليلة يتحاشى ما وسعه التحاشي أن يطمس بعنف في غدران المياه الآسنة وبرك المفرزات السائلة المتناثرة على طول الأزقة .. حتى لا يروع أسراب البرغش والبعوض الغافية على ضفافها وحوافيها بأمان واطمئنان ..

ولما وصل إلى داره « ربط » عربته على بابها ودخل بيته فإذا أمه قائمة خلف الباب تنتظره في قلق وتوجس ، وإذا إخوته يترقبون عودته بعيون ذابلة تغالب النعاس منذ زمن طويل .

زيَـارة خاطفَة



زيارة خاطفة

سعل أبو سرحان سعلة قوية ، وصل رذاذها إلى وجه الأستاذ ماجد ، فصحا من شروده ، وأفاق من غفلته .. هز رأسه يمنة ويسرة بضع هزات ، كمن يحاول أن يطرد حلماً مزعجاً . نظر إلى المنفضة فإذا هي قد تراكم فيها العديد من أعقاب السجائر .. رفع بصره إلى ساعة الحائط . فإذا بها تشير إلى العاشرة ليلاً .. ركز عينيه على فم أبي سرحان ، فوجده لا يزال يتحرك بأحاديث غاب عنه أولها ، وانقطع عنه آخرها .. أدرك أن شروده قد طال كثيراً ، فاستحيا وحاول التظاهر بالانسجام مع محدثه ، مكرراً الترحيب به قائلا :

يا مرحباً بالعم أبي سرحان .. شرفتمونا .. آنستمونا .. بعد زمان يا عم !.

أحس أبو سرحان بارتياح كبير ، لسماعه اسمه يتردد على لسان الأستاذ ماجد ، مما جعله يستشعر بارتفاع الكلفة أكثر فأكثر ، وكان ذلك مشجعاً له على الاسترسال في رواية المزيد من أخبار القرية ، ومن أخباره هو بالذات ، ولا سيما تواريخ حياته ، وذكريات أمجاده ! . على أن أبا سرحان لم يكن ليخلو من لباقة وكياسة جعلته يقطع أحاديثه بعض الشيء ليرد على ترحيب الأستاذ قائلا :

الله يبارك فيك يا أستاذنا .. والله لا غنى لنا عنكم .. محبتكم في قلوبنا لا تُقدر .. أنا مقصر في حقكم تقصيراً كبيراً ، وإني لأعترف .. فها قد مضى على آخر زياراتي إليكم أسبوع بتمامه وكماله ، وهذا كثير ! لكنها الظروف ، والمشاغل ، وضيق الوقت .. فعدم المؤاخذة يا أستاذنا ، وإن شاء الله اعتباراً من الآن ، نعوّض عما مضى ! .

ــ عفواً .. عفواً يا عم أبو سرحان .. ولكن خبرني كيف حال سرحان ؟

وقبل أن يجيب تنهد تنهدة عميقة ثم انطلق يقول : سرحان ! سرحان مجنون يا أستاذ ! لقد (بَطّل) من المدرسة . نعم (بَطّل) ! وأنت تعرف كم كان مجتهداً ، عندما كان عندك في صف الكفاءة ! كم كنت أتمنى له أن يصير شرطياً ، أو معلماً على الأقل .. لكنه لم يوافقني !

إنه الآن سائق (تراكتور) .. وهو فخور بهذه المهنة ، ويُصرّ على أنها خيرٌ له من الوظيفة . لأنه حر .. ولأن دخلها أكبر .. ومكانتها في المجتمع أحسن ! ولأنها لم تحرمه حتى من لقب (أستاذ) ، فالناس في كل مكان لا ينادونه إلا بـ : يا أستاذ : كلما رأوه يرتدي سترة أو يلبس بنطالا ! .

* * *

المنفضة امتلأت بأعقاب السجائر .. الساعة دقت الحادية عشرة ليلاً .. مضى على زيارة أبي سرحان خمس ساعات .. جعبته لا تزال مليئة بالأحاديث .. الأستاذ ماجد بدأ يحاور نفسه كمن يهذي بخفوت :

« وماذا بعد ؟ هل بقي شيء من طقوس الضيافة لم أؤده له ؟ القهوة .. الفاكهة .. السكاكر .. السجائر .. كل ذلك بذلته ، قدمته وانتهى .. فماذا بعد ذلك ؟ ! أحاديثه ، ها أنذا أسمعها للمرة الألف ! . (الوظائف) التي كنت أنوي تصحيحها في هذه الليلة ماذا أصنع بها ؟ رزم الأوراق التي كنت أزمع النظر فيها ، لم أتمكن من مسّها ! . دروس الغد ، لست أدري ما هي ! . »

ثم استسلم لخدر الإعياء ، فشرد من جديد ، وذهب في شبه غيبوبة .. أما رأسه فكان يهبط حيناً على صدره .

وحيناً يرتفع . أبو سرحان كان يجد في هذه الحركة المتناوبة مزيداً من الإغراء له ، في أن يواصل الأحاديث ، وأن ينفث سحب الدخان .. كان يحسب أنها حركات استحسان وموافقة على طرائفه ، وعلامات تصديق على نوادره ! . وعن غير قصد منه ، سعل سعلة جديدة كانت في شدتها أقوى من سابقتها ، وأعلى موجة .. رذاذها الغزير وصل سريعاً وبلا استئذان إلى وجه الأستاذ ماجد ففتح عينيه وهو غير متأكد ! أسعل صاحبه أم عطس ؟ ! لقد تردد بادىء الأمر في تشميته ، ولكنه عندما أحس بالرطوبة على وجهه ، توهم أن ذلك بسبب عطاس لا سعال ، فما كان منه إلا أن سارع يقول له مشمتاً : يرحمكم الله . فأجابه شاكراً : يهديكم الله ! . واستأنف للحال يقول :

«لا بد أنكم سمعتم يا أستاذنا بخبر الوحش الذي روّع القرية ، وأكل معظم دجاجها .. لقد استطاع أهل القرية أن ينصبوا له كميناً في الليل ويقتلوه ، وكان ابني سرحان ـــ الله يخلّيه ـــ في طليعة القوم ... أما الوليمة التي أقامها المختار لرئيس المخفر الجديد ، فإنها كانت دسمة حقاً ، واجتمع لها جميع وجوه القرية ، وكم كنت أتمنى لو كنت معنا .. على أن موسم الزيتون هذا العام جيد ،

والناس مستبشرون به خيراً وبركة .. الأمل كبير في أن ينشب صراع عنيف على ختم المختار بعد استلام ثمن محصول الدخان .. وهناك كثيرون يهيئون أنفسهم لانتزاع منصب المختارية » .

* * *

المنفضة تكاد تمتلىء للمرة الثانية بعد تفريغها .. الساعة أعلنت انتصاف الليل .. الريح لا تزال تعصف خارجاً .. البرد قارس يلسع الجلود .. المطر ينهمر بلا هوادة .. وقود المدفأة نفد برغم ضخامة الخزان .. الأستاذ يتململ .. يكاد يخرج من جلده .. لقد نهض بحركة عصبية وخرج من الغرفة .. تأخر متعمداً .. تركه وحده في غرفة الجلوس.. عساه ينتبه .. عساه (يذوق) ! . ثم رجع .. رجع مقطباً ضجراً .. قام أبو سرحان واقفاً ..

تنفس الأستاذ ماجد مستبشراً بالفرج . فها قد تهيأ صاحبه للانصراف . ولكنه سرعان ما عاد وجلس ! جلس بعد أن قام بواجب الاحترام ! وها هو ذا يتناول كيسه العتيد – وربما يتناوله للمرة الأربعين – فينشر طياته بين يديه ، ثم يدس فيه يمناه فتغوص فيه حتى المرفق .. وما هي إلا برهة حتى كانت شبه جزرة رطيبة تتدحرج بين أنامله ، وتروح وتغدو يمنة ويسرة على رأس لسانه

الزلق الأريب ! انبرى له الاستاذ معاتباً في حنق مكظوم : ولماذا لا تدخن يا أبا سرحان من (الباكيت) وهو أمامك ؟ أما اكتفيت تدخيناً من كيسك ؟ ! إلا أن أبا سرحان لم يفطن إلى رغبة الأستاذ ماجد في اختصار وقت اللف واللصق ، وما يتبعه من تفٍ ونف . فتابع (تلقيم) سيجارته ، واستمر في تقليبها على أصابعه ، وفي العزف عليها برأس لسانه ! . ثم غمسها في فمه وأخذ في إشعالها وهو يعتذر قائلاً : أشكرك يا أستاذ .. اعذرني ، دخان الباكيت خفيف .. الخفيف يؤذيني .. الخفيف يسعّلني ويذبح صدري ! . وعاد من جديد يسلي مضيفه بعذب أحاديثه ، هاش الوجه ، منبسط اللسان :

« وأرجو يا أستاذ ألاّ تعتب عليّ ، لأنني لم أتمكن من دعوتك لحضور حفلتنا الفاخرة التي أقمتها منذ يومين ، وجمعت فيها الشيب والشباب كلّهم ، ورئيس المخفر والمعلم .. لقد كانت بمناسبة ختان ابني الصغير ، الذي سيكون من طلابكم في الإعدادي ، السنة المقبلة إن شاء الله ! . لقد كانت فرحة .. فرحة عظيمة .. (عقبال) عندك يا أستاذ .. أعني لأولادك يا أستاذ » !

ثم تتابعت الحكايات .. وتوالت الأنباء .. ومعها السجائر وسحب الدخان الكثيف الثقيل .. يرافق ذلك كله

برد يصك الأسنان ، ويخلع المفاصل ، ويهز البدن ...

* * *

المنفضة أصبحت بيدراً من الأعقاب .. الساعة دقت معلنة الواحدة بعد منتصف الليل .. دقاتها توشك أن تحدث انفجاراً في دماغ الأستاذ ماجد . إنه يُحسّ بها مطارق عنيفة تتهاوى على صدغيه ! .

أبو سرحان لا يعير انتباهاً لشيء اسمه (ساعة) .. بل إنه لم يجرّب اقتناءها في بيته قط .. وهو لا يحملها — إذا حملها — إلا زينة في عنقه وزناره .. جعبته لا تزال حافلة بالحكايا الممتعة .. إنه لن يتوقف عن سردها .. ولن ينصرف من مجلسه قبل أن يفرغ الكيس .. تلك هي عادته في كل زيارة .. الكيس لا يزال فيه ذخيرة من الدخان تكفيه لنصف ساعة على الأقل ! .



خُيوطُ الفَجْرِ



خيوط الفجر

١

الآنسة (فاتنة) طالبة في البكلوريا .. جريئة .. متحررة .. ذات تيه واعتداد .. اجتماعية .. مثقفة .. تطالع باستمرار (الموعد) و (الشبكة) و (الحسناء) وسواها من المجلات .. هيفاء القد .. ميساء الخطوة .. المهم عندها أن تكون الفتاة ذات قلب طيب ولا عليها بعد ذلك .. لتخالط أياً كان .. ولتلبس ما يحلو لها .. لتؤمن بما تشاء .. لتقرأ (لسارتر) (ودي بوفوار) و (فرنسواز ساغان) .

وها هي ذي الليلة تبدو في أبهى زينة ، وكأنها جاهزة للزفاف أو للذهاب إلى المدرسة ! إنها في هذه الأمسية

عظيمة البشر .. طافحة الوجه سروراً وحبوراً ، تتنقل في خفة القطاة بين قاعة منزلها وغرفاته .. إنها حركة دائبة ، وحياة دافقة فوارة .. كيف لا ؟ وهي تحتفل الليلة بعيد ميلادها السابع عشر بين قريباتها وجاراتها وزميلاتها في الصف ، المحببات إليها كثيراً ، ولا سيما (شلتها) . ماجدة وناهد وسوسن .

* * *

النكتة الأولى في الحفل أطلقتها سوسن عندما تساءلت ـ لامزة ـ : أتدرين يا بنات ماذا ينقص حفلتنا هذه ؟؟

ساد الجو ثوان من الصمت والتفكير . فهذه تنظر يمنة وتلك تنظر يسرة ، هذه تمعن النظر في المائدة العامرة وهاتيك تقلب طرفها فيما حولها .. وعبثاً حاولن جميعاً العثور على أيّ نقص في ذلك الحفل الفاخر البهيج .. ! وعندها انهالت الأجوبة على سوسن : ـ كل شيء تام .. كل شيء كامل .. لا نقص .. لا قصور .. بل كل ما حولنا ينم عن سلامة الذوق .. وجمال التنسيق ! .

وبرغم ذلك كله أصرت سوسن على سؤالها من جديد ! ولكن الجميع في هذه المرة انطلقن متحديات وبصوت واحد ـ على غير اتفاق ـ : قولي إذن ما الذي ينقصها ؟؟

وللحال أجابت : — تنقصها (الشيخة علياء) .. علياء ليست بيننا ! .

وانفجر الجميع يقهقهن : ها .. ها . ها وكلما كاد الصوت يخفت علا موج الضحك من جديد .. ها .. ها .. ها ..

انقضت فترة تلاشت بعدها موجات الضحك المتتابعة وقد خلّفت وراءها سيلا من الحوار والتعليق تركز برمته حول (الشيخة علياء) .

ماجدة : (متظاهرة بالجد) : — وماذا فيها علياء حتى أثار ذكرها هذا الضحك بينكن ؟ أليست زميلتنا في الصف؟ أليست صديقتنا؟ ألم تكن حتى عهد قريب رفيقتنا في سهراتنا ونزهاتنا ؟ إنها الآن في صلواتها أو نسكها .. إنها تبحث عن الآخرة .. أما نحن فيا حسرتا ليس لنا من الآخرة شيء ! ؟

ناهد : — كأني بسوسن ، وهي تتساءل عن علياء نسيت أننا ذهبنا إليها البارحة مع فاتنة ودعوناها للمشاركة في حفلتنا هذه .. وكأني بها تناست أنها اعتذرت لنا بعد (محاضرة) طويلة عريضة في الأخلاق والدين والعادات الاجتماعية ؟ ! .

فاتنة : — على أيّ حال أنا قمت بواجبي ودعوتها.. ولعله

من حسن حظنا أنها لم تستجب.مسكينة كم كانت خفيفة الروح . لطيفة الظل والمعشر ؟ كم كانت مرحة متحررة .. قبل أن يطرأ على عقلها ما طرأ ! وقبل أن تنتابها هذه الموجة الطاغية المفاجئة من الهوس الديني . الذي اختطفها من بيننا ! .

سوسن (تتصنع الرزانة والحزم وهي تلتهم قطعة من الكاتو) : إن هذه الحفلة بدعة أجنبية . لا يجوز لنا مجاراة الأجانب فيها .. إن الأمم الأوربية هي التي طلعت علينا بنغمة (أعياد الميلاد) .. والتعليل الاجتماعي لهذه النغمة هو أن الحياة في الغرب تنعدم فيها روابط الأسرة يوماً بعد يوم ولهذا فهم يحاولون التعويض عن تلك الروابط المتقطعة باصطناع أمثال هذه الأعياد . وإن شعوب الغرب تشكو من خواء في الروح فهي لا تؤمن بما بعد الحياة .. ولذلك فإنها عبدت الحياة . وألهتها بإقامة حفلات عيد الميلاد ! .

هذا لا يعني أننا نكره الحياة ولكننا لا نؤلهها .. ونحن لا نهدر الحياة،ولكن لا يفوتنا مع ذلك أنها فانية لا محالة، وأن وراءها حياة أخرى خالدة آبدة . هي نعيم المؤمنين وذلك هو العيد .

الجميع : (يهتفن بملء حناجرهن مع النقر المتتابع بملاعق

الشاي على الفناجين) : برافو برافو عاشت الخطيبة ..
عاشت الواعظة (المودير ن) .

سوسن : لا بل قلن عاشت الشيخة علياء فهذا الذي أسمعتكن ليس إلا طرفاً يسيراً من الآراء الجديدة التي طالعتنا بها – بالأمس – علياء .. بل ما هو إلا نزر قليل من الارشادات الثمينة التي جادت علينا بها – بالأمس – علياء .

واحدة من المدعوات : (وقد شالت أنفها غطرسة، وزمت فمها استخفافاً) – هل لنا أن نسمع المزيد من هذه الآراء الفلسفية السديدة ، والإرشادات القيّمة ؟ ! .

فاتنة (تمضغ بقية تفاحة) : – مسكينة فعلا علياء .. لقد انقلبت بسرعة .. لقد تسممت أفكارها بشكل مخيف ... لقد أطالت ثيابها فأصبح منظرها مؤذياً كمنظر الفلاحات.. إنها لم تعد تؤمن بأن (خير اللباس ما قل ودل) .. والأدهى من ذلك شعرها .. شعرها .. صار بضاعة محرمة مخبوءة تحت منديل سميك يستحيل على الناظر أن يرى منه شعرة واحدة ؟ ! ما أتعسك يا علياء ..

ماجدة (مقاطعة) : لقد نسيت علياء أن الله يهمه منا القلب ومتى كان القلب طيباً فكل ما عداه شكليات ، لا ينبغي لنا أن نتزمت عندها ..

فاتنة (تعود لمتابعة حديثها) : — إنها تخوفنا من النار ..
أنْ يحرق بها الله أجسادنا المكشوفة ! إنها تنذرنا من
شيء اسمه (الموت) وشيء تسميه الحساب — ! بل
إنها تذهب إلى أبعد من ذلك .. إنها تحملنا مسؤولية إغواء
الشباب . وإغراء الرجال . وإيقاعهم في مزالق غير
حميدة ولو كان ذلك عن غير قصد ! .

ناهد (معقبة) : — كأني بها قد قتلتها هواجسها . وقتلها
غرورها . وغاب عنها أن النساء للرجال خلقن .
ولهن خلق الرجال ..

سوسن (مقاطعة) : — ونسيت أن الله جميل . وللمتعة قد
خلق الحسن والجمال .

فاتنة (مستأنفة) : — تعساً لها أين ستجد (فتى أحلامها)
بعد الآن ؟ أين ستجد الأنس ؟ أين ستمارس حياتها
وشبابها بعد أن انقطعت عنا ؟ مسكينة لقد دفنت شبابها
وهي في ريعان الشباب .. مسكينة لقد قضت على
نفسها بالموت وهي حية .

ماجدة : — يجب أن نصنع أي شي لانقاذها ..

إحدى المدعوات : — هذا ضروري جداً . وفيه إنقاذ
نفس ! ..

فاتنة (متابعة) : — لقد انتهى — بظني — كل شيء وفات

الأوان .. لقد قسونا عليها البارحة في الكلام ، عندما فوجئنا منها بتلك الآراء الغريبة العجيبة ! . لقد استهوتها العبادة ، واستمالتها كتب من نوع جديد وزميلاتها على شاكلتها .. فلا سينما .. ولا أفلام عاطفية .. ولا مسرح .. ولا نوادي .. ولا حفلات مختلطة ، ولا جلسات مع بنات (مستهترات) من أمثالنا .. إنه التحجر والجمود ! . إنه الفهم الخاطىء لروح الدين وسماحة الدين ! . ... إنه التضحية بسعادة النفس على حساب المثل الجوفاء .. إنه التنازل عن الحرية الشخصية في سبيل أوهام وأساطير لفقها مصلحون أنانيون (طوباويون) .. إننا يجب أن نؤمن بالحياة وبالمتعة وبالحرية .. (الموت) .. (الموت) .. ما هذا الشبح الذي يخيفنا منه المتدينون ؟ إننا سنموت ولا شك – عندما نشيخ ونهرم – فما لنا وللموت الآن ؟ نخاف منه ، ونحسب له ألف حساب ؟ .. إننا يجب أن نموت مرة واحدة فقط ، وأن نحيا طالما ظل بمقدورنا أن نمارس الحياة على أي نحو كان .. قلن لي بربكن كم ذا تكون خسارتنا كبيرة لو متنا اليوم أو غداً ؟ ماذا نصنع لو حصل هذا من قبل أن نسعد بالحياة وننهل من عيون لذتها ومسراتها ؟ !

— ١ —

الحارس الليلي (أبو صابر) أصابه الضجر من كثرة ما ذرع الشارع الطويل بخطواته المتثاقلة وبسطاره الضيق جيئة وذهاباً .. وها هوذاينوقف هذه المرة عند رأس الشارع ... ينظر إلى ساعته فإذا هي الثانية بعد منتصف الليل .

أشعل لفافة ثم قعد مستنداً بظهره إلى سور حديقة .. أشرفت اللفافة على الانتهاء .. السكون والصمت مخيمان .. فلا صوت .. ولا حركة باستثناء سعال متقطّع خفيف ينفثه صدره بين الحين والآخر . النجوم ترتعش في السماء .. الجو لطيف .. الشهر في آخره .. الهلال كالطيف يوشك أن ينطفىء .. إنه يتسلق كبد السماء بصعوبة بالغة ، فكأنه الشيخ الهرم يقترب من الأبدية مودعاً دنياه .. رأس أبي صابر بدأ ينوس فوق صدره مثقلا بالنعاس .. بل كان يُسمع له شخير ، والشخير نفسه هو الذي كان يرده إلى اليقظة كلما كاد يستسلم للرقاد .. إلا أنه نام أخيراً واستغرق لكن نومته لم تطل .. لم يفق الآن على شخيره الحاد ، ولكن أفاق على أنين .. أنين مؤلم عميق .. مؤثر .. يصلك السمع .. يهز المشاعر .. يثير الشفقة ..

أفاق كالملسوع يتحسس مصدر الصوت .. عرفه

أخيراً .. إنه أنين مريض ينبعث من غرفة في الطابق الرابع من المستشفى الذي كان يستند إلى سور حديقته .. إذن لا شأن له – من الوجهة الرسمية – بهذا الصوت .. فهناك الأطباء والممرضات .. الممرضة المناوبة في القسم هي الأخرى سمعت الصوت .. ولكنه لم يثر فيها ما أثار في الحارس من مشاعر لقد اعتادته منذ عدة شهور ... إنه صوت المريضة (أم سوسن) نزيلة الغرفة (٤٨) .. المريضة الميؤوس منها .. المودعة برسم الأمانة تنتظر يومها الأخير ! . ظلت الممرضة مسترخية على سريرها وكأنها لا تسمع شيئاً ! . أما الطبيبة المعاودة التي تقضي أول ليلة لها في هذا القسم من المستشفى . فلم تستطع تجاهل الصوت ونداء الأنين .. انطلقت من غرفتها الخاصة ومعها بعض العقاقير .. تتبعت مصدر الصوت .. وعندما وصلت إلى الغرفة (٤٨) كان الصوت قد تلاشى .. فتحت الباب فإذا امرأة مسطحة على سرير مشوّش .. عيناها مغمضتان في شبه غيبوبة جسّت نبضها فوجدته بطيئاً على وشك التوقف .. اصغت إلى تنفسها فكان مضطرباً خافتاً .. جلست بجانبها .. أعطتها بعض المنعشات فأفاقت بعد قليل ، استوت على سريرها بعض الشيء .. أدارت عينيها الذاهلتين فيما حولها .. ثم ثبتتهما فجأة وبارتعاد .. في هذا الوجه

الجديد – وجه الطبيبة – ، حاولت أكثر من مرة أن تدلك عينيها ولكن يدها الكليلة لم تقو على ذلك .. ما زالت تنظر .. بل ما زالت تحدق في هذا الوجه الجديد ! .. قسمات وجهها بدأت تضطرب .. تنبسط وتنقبض .. تحضر وتغيب .. على أنها انفجرت مرة واحدة وقذفت بسؤالها إلى الطبيبة : من أنت ؟ بربك قولي من أنت يا هذه ؟ أجيبي ؟..

– أنا الطبيبة يا أمي .

– أنا لا أسألك عن مهنتك .. أنا أسألك عن اسمك ؟ .. بربك قولي ألست أنت علياء ؟ ! ..

وبهتت الطبيبة .. ولكنها لم تلبث أن ردت عليها : بلى أنا علياء . وفي مثل لمح في البصر كان رأس علياء بين يدي أم سوسن ، تطوقه ، وتقبله وتجهش بالبكاء ، وتسقيه بالدموع .. شدهت علياء .. بل صعقت .. من عساها تكون هذه المرأة ؟؟ ... أبها مس من الجنون ؟ كيف عرفت اسمي إذن ؟ أنا أقابلها لأول مرة .. لم يسبق لي أن عالجتها .. بل لم يسبق لي أن حضرت إلى هذا المستشفى أبداً وإنها أول ليلة أبيتها فيه ؟ ! .

وكانت قد ارتدت برأسها إلى الوراء ، وأخذت تحدق في مريضتها مشدوهة لا تدري ماذا تفعل ، وماذا تقول ؟! ثم انطلق لسانها يسأل : من أنت يا خالة ؟ وكيف

عرفت أناسمي علياء؟ من أخبرك به؟ هل سبق لنا أن التقينا قبل الآن ؟؟

وردت المريضة بصوت متحشرج يختنق بالعبرات :

– نعم يا علياء .. لقد التقينا كثيراً قبل الآن .. إن اسمك وإن صورتك لم يبرحا خاطري – منذ أصابني المرض قبل ثلاث سنين .. ولا أدري ما السبب ؟ ! أنا التي (أكلت لحمك) ذات يوم .. أ .. أ .. أنا فاتنة ! .. وانفجرت ثانية بالبكاء والنحيب ..

أما علياء ، علياء التي خشعت من رهبة الموقف ، ولُجم لسانها من عنف الصدمة ... فقد انتفضت بعد برهة من مكانها وهي تمسح دموعها السخية .. انتفضت وهي لا تصدق أذنيها لتقول :

أقسمت عليك بالله أأنت فاتنة ؟ ! وجاءها الجواب خافتاً متقطعاً : نعم أنا التي كان يقال لها فاتنة ذات يوم .

– مستحيل ! . مستحيل ! فاتنة زميلتي ! . فاتنة أصغر !. فاتنة أنضر ! .. فاتنة لها غير هذه الملامح ! . ثم أكبت على سريرها تضمها إلى صدرها وتجهش بالبكاء المر الأليم ...

وكانت لحظات غابتا فيها كلتاهما عن الوجود .. ثم جاءت الصحوة :

فاتنة : أية سماء هبطت بك عليّ يا علياء ؟

علياء : قدر الله .. هو الذي شاء أن تكون آخر دوراتي التدريبية – قبل التخرج في كلية الطب – في هذا المستشفى .. هو الذي شاء أن تبدأ دورتي هذه في هذه الليلة .

فاتنة : حمداً لك يا رب .. أبعد سبع سنين بطولها تكتب لنا هذا اللقاء ؟! . وسادت فترة من الصمت قطعتها علياء بسؤالها : – وأنت يا فاتنة .. ما مرضك ؟ ما قصتك ؟ ما الذي جاء بك من حلب إلى دمشق ؟

تنهدت فاتنة تنهدة عميقة حرّى . ثم أنشأت تروي قصتها .. قصة السنين السبع بطولها .. بصوت خفيض كالهمس . خافت كالمناجاة :

« بعد نجاحنا في البكالوريا وافتراقنا .. حاولت دراسة الفلسفة .. مكثت سنتين لم أنجح .. أحيا كما تعرفين .. منطلقة .. جامحة الرغائب والآمال .. متمردة على كل ما أظنه قيداً .. حتى نصائح أمي التي لم يكن لي سواها .. لا أشك في الخالق .. ولكن أعتقد بأن كل ما له على الفتاة أن تكون طيبة القلب وكفى .. وتعرفت على العديد من الشباب والشابات بحكم الزمالة .. وأكثر من شاب حاول الدنو مني زوجة فرفضته .. كنت لا أريد أن أقيد نفسي ..

وأكبح حريتي في سن مبكرة .. ثم أحبني إنسان لا أعرفه .. ولا أتوقعه .. كان يراني في الطريق وكنت أراه أحياناً .. ثم أحسست أن تعلقه بي يزيد على تعلق الكثيرين ممن سبقوه من زملائي .. ومع الزمن أحببته ، ورضيت به فتزوجته ، ثم تبين لي أنه زوج – لامرأة أخرى وأب لولدين .. لم أنقم عليه .. ولكنني نقمت على نفسي .. أنا لست أجمل من زوجته .. وهو لم يتزوجني كرهاً بها .. ولكنها كانت بريئة ساذجة .. كان يصادفني يومياً في طريقه إلى وظيفته .. وكان أن تعلق قلبه بي صادقاً وفياً .. ثم أرغمته أن يطلقها ، كما أنها هي الأخرى طالبته بذلك غيظاً وحنقاً .. فطلقها أخيراً .. لقد ماتت أمي بعد ذلك – وهي غير راضية عني – وكان قد سبقها والدي .. فلم يبق لي أحد . ساء الجو من حولنا .. أهله هو الآخر هجروه ونبذوه .. أشرت عليه أن يطلب نقل وظيفته إلى دمشق ففعل .. وتركت الجامعة .. وترك أهله وملعب شبابينا وقدمنا إلى دمشق .. لم تتحسن أجواؤنا النفسية والبيتية برغم تغير البيئة والابتعاد.. ثم ولدت لنا بنت بعد سنة من زواجنا .. جميلة ، رائعة .. سميتها سوسن على اسم صاحبتي العزيزة زميلة دراستنا المعهودة .. تحسنت علاقاتنا بعض الشيء .. ثم عادت تنتكس . إحساسي بالغربه سنا – مع سوء العلاقة المتزايد

بيننا – أرهقني .. (وصمتت فترة تسترد بعض قوتها المتلاشية وتكفكف دموعاً سخينة صامتة تجري على وجنتيها) ثم أرسلت تنهدة عميقة لاهبة وتابعت تقول :

وأضنى جسمي .. أحرق أعصابي .. وزوجي كذلك .. بدأت أحس بآلام في أحشائي .. ثم قيل لي هي القرحة في المعدة .. أخذت أتعالج ولكن دون فائدة .. عبثاً كنت أحاول الترفيه عن نفسي ، وتصريف همومي ، وكان ذلك مما يزيد في الداء .. وبعد سنتين من ذلك استمرت صحتي في التدهور .. وجاء التشخيص الجديد ليقول : بداية تورم خبيث في المعدة .. وهكذا استحالت القرحة إلى سرطان .. ثم أخذ السرطان يستفحل .. إلى أن أقعدني هنا أتجرع آلامي كما ترين .. وقد خار العزم ، وولى الشباب .. وأصبحت كأني بنت الخمسين .. (سوسن) عمرها الآن أربع سنين .. هي مع أخويها عند جدتها في حلب .. لم أرها منذ دخلت المستشفى قبل أربعة شهور .. زوجي لعله عندها في إجازة .. أو لعله كرهني .. ملني .. سئم كثرة التردد علي .. فأنا ما رأيته منذ أسبوعين .. وأنا أنتظر أجلي في كل لحظة .. في أعقاب كل نوبة من الألم».

* * *

ما كادت تصل فاتنة إلى هذا حتى خنقتها عبراتها

وخفت صوتها ، وانعقد لسانها ، فلا يُسمع لها إلا نحيب عميق مكظوم ...

أما علياء فهي الأخرى لم تعد تتمالك نفسها فانخرطت في بكاء يعتصر قلبها ويستنزف الدمع من عينيها دماً حاراً هتوناً .. ثم تجلّدت بعض الشيء ، وقامت إلى فاتنة تواسيها وتخفف عنها : لا .. لا تجزعي يا فاتنة .. عرفتك قوية .. شجاعة .. جلدة .. لا تقنطي من رحمة الله .. لا تستسلمي لليأس .. فقد يكتب الله لك الشفاء .. وقد يكون ذلك منه ابتلاء .. لا تجزعي يا أختاه .. استسلمي إلى قضاء الله .. واصبري .. فالصبر جميل .

هدأت فاتنة بعض الشيء ، ولكنها استأنفت ووجهها مدفون بين كفيها فوق الوسادة تجمجم بكلام لاهث متقطع مجهود : — عفوك يا رب .. لم يبق لي سواك .. فهل تقبلني ؟ .. رحماك يا الله .. ليته الابتلاء .. ليته .. ولكن لا .. لا .. إنه الانتقام ، الانتقام من زوجي لأبويه .. لولديه .. لزوجه الوفية .. بل هو الانتقام مني لأمي الصالحة الحنون .. الانتقام مني لضحاياي .. ضحاياي الذين فتنتهم .. أغويتهم .. اغتلت قلوبهم البريئة ... صرعتهم من حيث أدري ولا أدري في أول الطريق ...

ادن .. ادن مني يا موت .. فلطالما خدعتني أوهامي ..

لطالما ظننتك تتحاشى الصبايا .. وتوجل الشباب .. لطالما استخففت بك .. أنت أعذب عندي الآن من الحياة .. الحياة الغادرة .. الفانية .. الغرورة .. ولتخسأ يا علم .. فيا طالما تبجحت باسمك .. ها قد ركعت أمام القدر . وقال الطب لا أمل ..

ثم أطبق الصمت على الغرفة ، وهمت علياء أن تفعل شيئاً ، لولا أنها عادت تسمع تساؤلات خافتة كأنها الهذيان :

«أصحيح أن القبر مظلم ؟ ضيق ؟ . رطب ؟ . رهيب ؟ خشن ؟ . وتجيب : نعم صحيح .. وعما قليل سأحمل إليه .. جسداً بارداً .. هامداً .. وهناك لن يكون من حولي أصحاب .. ولا أحباب .. لن يكون معي مال .. ولا سوسن .. تلك الحفرة لي وحدي ... لا تتسع للحفلات .. ولا للسهرات .. ولا لخزائن اللباس . لن يكون معي إلا كفن ... لن يكون تحتي إلا تراب .. ولن يكون فوقي إلا تراب .. (ثم أمسكت بخصلة من شعرها) واسترسلت تقول : أصحيح أنك ستتساقط هنالك شعرة .. شعرة ..؟ وبعدها تتلف .. تيبس .. تصبح هشيماً ثم رماداً ؟ .. (وتلمست بعد ذلك عينيها) ، وهي لا تزال كالهاذية : بكما أرى النور .. أرى الحياة .. بكما كنت أرمي

فأصيب .. فأَصرع .. وأزهو .. وأتيه .. أحقاً ستصبحان بعد أيام حفرتين .. تسكنكما الديدان .. تنهش منكما .. تعشعش فيكما .. ثم يتفسخ الدود .. ويستحيل إلى تراب ؟؟

وداعاً يا دنياي .. وداعاً يا شبابي .. وداعاً ياعلياء .. وداعاً يا سوسنتي الصغيرة . ادني مني يا حبيبتي .. تعالي أضمك إلى صدري .. الثمك .. لثمة واحدة فقط .. أملأ صدري بعبير شعرك الحرير .. شمة واحدة فقط .. أهكذا .. لاتجيبين ؟ ! ..»

* * *

سقط رأس علياء – وكانت تجلس إلى حافة السرير – فوق صدر فاتنة .. لم تعد تحتمل ما تسمع .. لم تعد تطيق ما ترى .. لم تعد تقوى على متابعة ما كانت تتلوه من قرآن ، وتردده من دعاء – ولو همساً – ، أحست بها فاتنة فصحت من ذهولها وهي تنادي : علياء .. علياء .. فاجابت علياء : نعم يا أختاه ، أنا هنا .. أنا معك .. بكل جوارحي .. بقلبي .. بدموعي .. ألا تحسينها على صدرك ؟ كفى .. كفاك يا فاتنة .. أتراك فقدت الصواب ؟ يئست من رحمة الله ؟ ومن شفاء الله ؟

صدر للمؤلف

الكتاب		الطبعة الأولى
ولهان والمتفرسون	قصص قصيرة	١٩٧١
سلة الرمان	قصص قصيرة	١٩٧٢
همسة في أذن حواء	نقديات اجتماعية	١٩٧٢
جلسة مفتوحة	حوار مع مالك بن نبي	١٩٧٣
حادثة في شارع الحرية	قصص قصيرة	١٩٧٥
للأزواج فقط !!	نقديات اجتماعية	١٩٧٧
أصوات !!	قصص قصيرة «بالاشتراك»	١٩٧٨

المحتوى

" ... أما علياء، علياء التي خشعت من رهبة الموقف

ولجم لسانها من عنف الصدمة فقد انتفضت بعد برهة من

مكانها وهي تمسح دموعها السخية ... انتفضت

وهي لا تصدق أذنيها لتقول:

أقسمت عليك بالله أأنت فاتنة؟! وجاءها الجواب

خافتا متقطعا..

نعم أنا التي كان يقال لها فاتنة ذات يوم.

- مستحيل! فاتنة زميلتي! فاتنة أصغر! فاتنة أنضر!

فاتنة لها غير هذه الملامح!

ثم أكبت على سريرها تضمها

إلى صدرها وتجهش

بالبكاء المر الأليم ...."